Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ الأدب العربي

تحقيق

دكتور حسين نصار

شعبان عبد العاطي عطية

الناشر

مكتبة المعارف الحديثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثائق المرابطين والموحدين

عبد الواحد المراكشي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثائق المرابطين والموحدين

عبد الواحد المراكشي

تحقيـــق

دكتور/ حسين مؤنس

الطبعة الأولى

١٩٩٧

الناشـــــر

مكتبـــة الثقافـــة الدينيـــة

٥٢٦ شارع بورسعيد ـ الظاهر

ت: ٥٩٣٦٢٧٧ - ٥٩٢٢٦٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قبل الحديث عن وثائق المرابطين والموحدين، الاقتصادية والاجتماعية، للمؤرخ عبد الواحد المراكشي، نلقي الضوء على هاتين الدولتين بشيء من التعمق والفحص، حتى يستطيع القارئ والباحث العيش معنا خطوة بخطوة، فهذه الفترة تمثل دوراً هاماً في حياة أمتنا الإسلامية، وخاصة بلاد المغرب.

المرابطـــــون

توقيـــت :

عبد الله بن ياسين، ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م.

يحيى بن عمر، ت ٤٤٧ أو ٤٤٨هـ/ ١٠٥٥ أو ١٠٥٦م.

أبو بكر بن عمر، ت ٤٨٠/ ١٠٨٧ ـ ١٠٨٨م مجاهداً في السودان.

يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين، ٤٥٣ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٦١ ـ ١١٠٧م.

معركة الزلاقة، ١٢ رجب ٤٧٩هـ ـ ٢٤ أكتوبر ١٠٨٦م.

علي بن يوسف، أمير المسلمين، مستهل المحرم ٥٠٠ ـ ٥٣٧هـ/ ٢ سبتمبر ١١٠٦ ـ ١١٤٢م.

تاشفين بن علي، أمير المسلمين، ٥٣٧ ـ ٥٣٩هـ/ ١١٤٢ ـ ١١٤٤م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إبراهيم بن تاشفين، لم تدم إمارته إلا أسابيع، خلال سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م.

إسحاق بن على، تولى سنة ٥٤٠هـ وقتل فى مراكش على أيدى الموحدين سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٤٧م.

المرابطـــــون

بالرغم مما انتهت إليه تجربة دولة الأدراسة من توفيق فى تعريب المغرب الأقصى وتثبيت أقدام السنة فيه، وبالرغم مما بذلته القبائل المؤيدة لها من جهد فى المحافظة عليها وبعث القوة فى كيانها كلما وهنت واشتد ضغط خصومها عليها وعدوانها على أراضيها وعاصمتها، أملاً فى توحيد أكبر قسم من المغرب الأقصى تحت لواء دولة إسلامية سنية جليلة تضاهى دول المشرق عامة فى المكانة وإن لم تصل إلى شأوها فى اتساع السلطان، بالرغم من ذلك فإن الأثر الحضارى الذى خلفته دولة الأدارسة كان عميقاً وبعيد المدى كما رأينا. وإذا كانت جيوش الفاطميين وأنصارهم قد دخلت المغرب الأقصى، مرة بعد أخرى، وقضت على دولة الأدارسة فى فاس واضطرت من بقى من أفرادها إلى اللجوء إلى منفاها فى قلعة «حَجَر النسر» قرب بصرة المغرب فى قلب جبال الريف، فإن النتائج السياسية التى تركها الأدارسة وراءهم كانت لا تقل عن النتائج الحضارية؛ فقد رأت قبائل المغرب الأقصى كيف قامت فى بلادهم دولة قوية الجانب منظمة الإدارة، يقوم على رأسها إمام مطاع ومحبوب، تعز به السنة والجماعة ويستقيم بجاهه الإسلام الصحيح ويظهر به أمر قبائل بربرية لم تكن ذات شأن سياسى كبير، مثل أوربة وغمارة ودكالة وسدارته ونغزة، وبعض هذه القبائل صنهاجية أو مصمودية أى من البرانس، وبعضها الآخر زناتية أو من البتر.

وكان نجاح هذه القبائل فى إقامة دولة بنى إدريس حافزاً لزعماء قبائل أخرى على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محاولة إنشاء دولة لحسابها. وجدير بالذكر أن تنافس القبائل المغربية ما بين صنهاجية وزناتية ومصمودية على السلطان والسيادة كان قوة محركة ومسيرة لتاريخ المغرب حتى قيام دول الشرفاء فى المغرب الأقصى.

وبعد زوال أمر الأدارسة واستبداد موسى بن أبى العافية بالأمر تحت راية الفاطميين لم تستقر الأمور، وبعد أن انتهى أمر موسى بن أبى العافية وآله على ما قلناه، لم تلبث وحدة القبائل التى أقامت دولة الأدارسة أن انفرطت. وخلال العقود الأولى من القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ـ عاد المغرب الأقصى إلى الفوضى ونزاع القبائل من جديد، وسادته القبائل الزناتية وخاصة غمارة وبنو يفرن.

وفى عصـور الشغور السياسى من تاريخ المغرب، تسود القبائل الزناتية أى البدوية، لأنه لا يكبح جماح البدو إلا الدول القوية المستقرة التى تحمى الحضر وتأخذ بناصرهم وتحميهم من عدوان البدو، وتعمل على إقرار هؤلاء وإخراجهم من البداوة العقيم إلى الاستقرار المنتج المثمر.

حدث شىء من ذلك بعد القضاء على آخر الأدارسة على يد مصالة بن حبوس حامل لواء دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥- ٩٢٦م وفشل موسى بن أبى العافية الذى أنابه مصالة بن حبوس عنه فى حكم منطقة فاس ثم زال أمره وأمر بنيه.

هنا نجد أن قبائل البدو والزناتيين عادت إلى السيادة وإخضاع أهل البلاد للإتاوة والإرهاب على طريقتهم التقليدية فى العصور القديمة والوسطى، وكانت قبيلتا مغراوة وبنى يفرن صاحبتى النصيب الأكبر من هذا السلطان على ما كان داخلاً فى دولة الأدارسة من بلاد المغرب الأقصى جنوبى جبال الريف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقبيلة مغراوة كانت من كبريات قبائل الزناتية فى المغرب الأقصى، وكانت جماعات فرسانها تجتاح بسائط الهبط وأزغار شمالى المغرب وتلزم بالطاعة من قدرت عليه من أهل هذه البسائط، فامتد سلطانها عليها بأداء المغرم من ممر تازا إلى وادى أم الربيع تقريباً، بما فى ذلك ريف تامسنا، وهو الشريط الساحلى الخصيب الذى يمتد من جنوبى جبال الريف حيث بسائط الهبط وأزغار على ساحل الأطلسى، إلى مجرى وادى أم الربيع، وقد تمكنت مغراوة وبنو يفرن من سيادة المغرب الأقصى كله فى نهاية عصر العواصف كما رأينا.

وقد أعطانا ابن عذارى فكرة عن أحوال المغرب الأقصى إذ ذاك فى فقرة من تاريخه، نقلها عن محمد بن يوسف الوراق قال فيها:

« وقد ذكر ذلك الوراق وشرحه شرحاً كافياً وقال: لما توفى زيرى بن عطية سنة ٣٩١هـ أقام بنو عمه ابنه المعز مكانه، وذكر استجداء المعز للمظفر بن أبى عامر وإرساله إليه وتقليد المظفر له ولاية المغرب على ما تضمنه من خيل وسلاح وغير ذلك، ورهنه المعز ولديه حمامة ومعنصر، وذكر موت المظفر (بن أبى عامر) وتقديم أخيه عبد الرحمن لحجابة هشام المؤيد. وبلغ المعز بن زيرى ذلك فاحتفل فى هدية عظيمة يهديها له، وذلك سبعمائة من الخيل، وأحمال كثيرة من درق اللمط، وجملة كبيرة من المال والسلاح والخيل وسائر ما فى المغرب من الطرف، ووصل قرطبة مع هذه الهدية فتيان من بنى عمه وجملة من شيوخ القبائل ووجوه فاس، فسر عبد الرحمن بذلك وشكر المعز وسرح ابنيه إليه بعد أن كساهما وأرضاهما، وكتب للمعز عهده بتجديد ولاية المغرب كله إلا مدينة سجلماسة، فإنه كان قد عقد ولايتها لواضح الفتى قبل ذلك، وولاها واضح بن وانودين بن خزرون اليفرنى وابن عمه زيرى بن فلفل على مال ضمناه إليه وعدة من الدرق والخيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معلومة، وجملة من المال فى كل سنة ورهنه كل واحد منهما ابنه فامتثل المعز ما أمره به عبد الرحمن بن أبى عامر، وبقى المعز أمير المغرب إلى أن انقرضت الدولة العامرية. ثم انقرضت الدولة المروانية وانشقت عصا الأمة، وخرج أمر الناس بالأندلس وصار المسلمون شيعاً متفرقين، يقتل بعضهم بعضاً وينهب. وفعل أهل المغرب ذلك فكثر فيه الشتات وشن الغارات بعضهم على بعض، وأقام المعز بن زيرى يدارى أمره إلى أن حانت وفاته سنة ٤٣٣. وولى ابنه دوناس بن حمامة (اليفرنى) فقام عليه بنو عمه. ولم يزل أمرهم يضعف إلى أن قام بمدينة فاس أميران بالعدوتين، وكانت الحرب تقوم بينهما، وجرت بين ذلك أمور وخطوب لا يحسن ذكرها لشناعتها، إذ إن الدول، إذ أدبرت، كل ما فيها يقبح ذكره، إلى أن شاع خروج لمتونة من الصحراء واستيلاؤهم على بلاد المصامدة وخلعهم لملوكهم وناموس عدلهم، ودخل عبد الله بن ياسين مدينة أغمات وما يليها فخافت زناتة وأجفلت عن جهة الشرق حيث مستقرها »[1].

تطلع الصنهاجيين إلى التخلص من سلطان الزناتيين - جدالة :

فى هذه الظروف نجد أنه من الطبيعى أن تتطلع القبائل الصنهاجية الضاربة فى أقصى جنوبى المغرب الأقصى إلى التخلص من سلطان الزناتيين، وكانت أهم قبائلهم فى ذلك الحين- وهو النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى- مجموعة قبائلية تضم قبائل كثيرة أهمها جدالة ولمتونة ومسوفة وبنو وارت وتارجا[2] ولمطة وجزولة، وكانت منازلهم تشمل وادى سوس ووادى درعة، وهذا الأخير هو آخر وديان المغرب

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ١- ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) تكتب تارجا، وتاركا وتاركه أيضاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينهضوا لرده، ولا شك فى أنه لاحظ أن كل من حركوا القبائل البربرية لإنشاء الدول كانوا دعاة من المتحمسين من رجال الدين أو من ذوى المكانة الدينية مثل أبى الخطاب السمح ابن مالك المعافرى وأبى عبد الله الشيعى وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، حتى برغواطة دعا بينها رجل زعم لنفسه العلم والفقه هو ميسرة المدغرى.

وكان يحيى بن عمر يرجو أيضاً أن يستطيع هذا الفقيه الداعى حفز همم مجموعة القبائل الصنهاجية الجنوبية إلى بذل المزيد من الجهد فى محاربة القبائل السوادنية صاحبة السيادة على أودغشت وحوض السنغال، وكانت تحاول أن تسيطر على سجلماسة أيضاً عبر الصحراء حتى تكون كل موارد التجارة بين يديها. وكان الصنهاجيون الجنوبيون يحاربون هذه القبائل السودانية دفاعاً عن أنفسهم أولاً ثم جهاداً من جانبهم لإدخال أهل السودان فى الإسلام، ومعنى ذلك أن صنهاجة الصحراء كانوا محصورين بين زنانة من الشمال والسودانيين فى الجنوب، وكان لا بد لهم من أن يكسروا هذا الحصار المضروب عليهم.

تحدث يحيى بن عمر إلى أبى عمران الفاسى فى إرسال أحد تلاميذه معه، ولكن أحداً من أولئك التلاميذ لم يتقدم للقيام بهذه المهمة لبعد المسافة وصعوبة المهمة؛ فكتب له أبو عمران توصية إلى تلميذ من تلاميذه يسمى وجاج بن زللو اللمطى، ولمطة إحدى قبائل صنهاجة، وكان وجاج فقيهاً ذا مكانة كبيرة، ولكنه لسبب لا نعرفه لم يشأ القيام بالمهمة، فندب لها تابعاً من أتباعه، وكان فقيهاً شاباً يسمى عبد الله بن ياسين الجزولى، وكانت جزولة أيضاً من مجموعة القبائل الصنهاجية الجنوبية وأهمها لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة وتارجا وبنو وارت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الله بن ياسين :

ونهض عبد الله بن ياسين لأداء مهمته وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وبدأ يعمل، وتكشف عن رجل نشيط ذكى متحمس واسع الآمال، فلم يقتصر على تعليمهم شعائر الدين بل أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم من حياة الخشونة والبدائية التى كانوا يعيشون فيها؛ فوضع لهم نظاماً للآداب العامة وأخذهم بالشدة، وكان الجداليون ـ بالرغم من كثرتهم ـ أهل فوضى واندفاع وقلة نظام، فلم يلبثوا أن ثاروا على عبد الله بن ياسين وأخرجوه من بلادهم، لأنهم لم يتحملوا عنفه وشدته.

ولجأ عبد الله بن ياسين إلى شيخه وجاج بن زللو فطلب إلى يحيى بن عمر عقابهم على ما فعلوا، فقام بذلك وجعلهم يطلبون عودة عبد الله بن ياسين إليهم، ولكنه رفض، فنصحه وجاج بأن يذهب إلى منازل قبيلة لمتونة وكانوا أميل إلى النظام والتماسك والعمل الجاد.

وإلى حين قريب لم نكن نعرف إلا شيئاً يسيرا عن عبد الله بن ياسين الجزولى، ولكننا نعرف الآن أنه كان رجلاً واسع العلم بعيد الطموح شديد الذكاء، ويحدثنا ابن عذارى أنه زار الأندلس ودرس فيه علوماً شتى، وعندما عاد إلى المغرب قطعه من الشمال إلى الجنوب، ومر فى طريقة بريف تامسنا، ورأى كيف أن جموع الصنهاجيين ترزح تحت وطأة الزناتيين، وقدّر أن جنود الزناتيين هناك لا يزيدون على ثلاثة آلاف، وأدرك أنه من الممكن التغلب عليهم وإقامة دولة لصنهاجة هناك. وبعد ذلك بسنوات عندما توجه إلى منازل لمتونة أحس أن فرصته جاءت ليحقق ما كان يجول فى ذهنه، وتجلى عن شخصية رجل سياسى مؤهل للقيام بحركة سياسية كبيرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عرف عبد الله بن ياسين من أول الأمر كيف يكسب ولاء يحيى بن عمر بن إبراهيم رئيس لمتونة، وكان أصل يحيى هذا من جداله ولكن جده إبراهيم كان قد صاهر اللمتونيين ودخل فيهم وانتسب إليهم وأصبح يعد نفسه من أبناء ترجوت بن ورتاسن بن منصور بن مصالة بن أميت الذى عرب إلى أمية بن وانمالى، الذى عرب إلى وانمال بن لمتونة التى تنطق أيضاً تلميت بن صنهاجة، وقد وصل هذا الرجل بذكائه وقدرته إلى أن أصبح من زعماء لمتونة ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم عمر وتاشفين، فأما تاشفين فهو أبو يوسف الذى سنتحدث عنه فيما بعد، وأما عمر فقد أنجب أبا بكر ويحيى، ويحيى هذا هو الذى تحدثنا عن رحلته إلى القيروان ومجيئه بعبد الله بن ياسين.

وفيما يلى جدول بنسب ترجوت بن ورتاسن وفروعه:

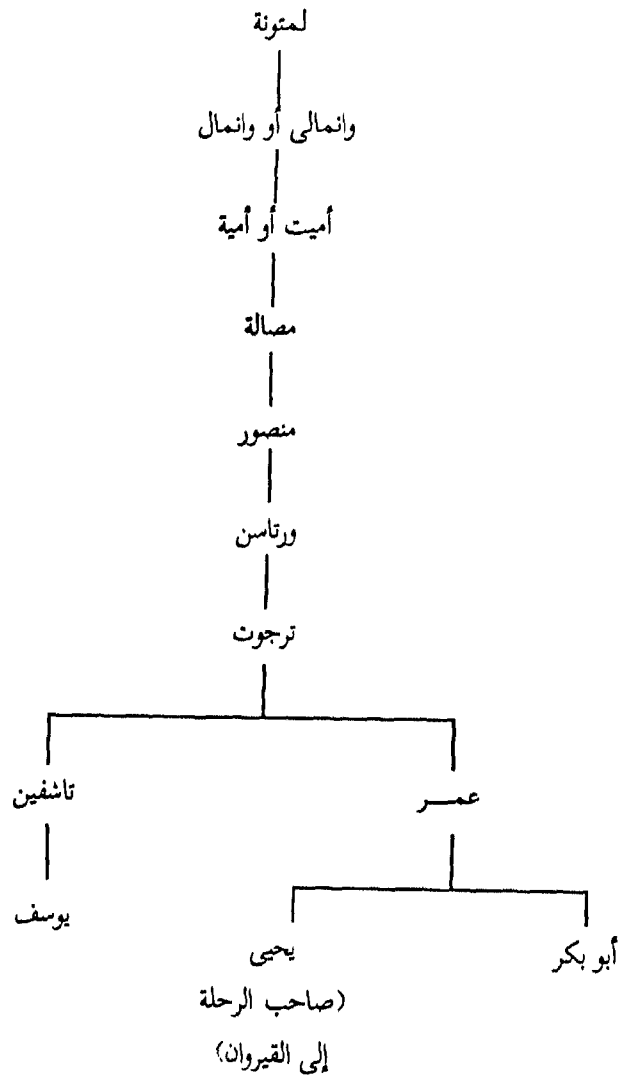
لمتونة
وانمالى أو وانمال
أميت أو أمية
مصالة
منصور
ورتاسن
ترجوت
تاشفين
عمـــر
يوسف
يحيى
(صاحب الرحلة
إلى القيروان)
أبو بكر

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كون حوله جماعة من المخلصين اللمتونيين خرج بهم إلى جزيرة في المحيط قرب مصب وادي السنغال لكي يفرغوا لأ العبادة؛ ولم يلبث هذا الرباط أن اتسع وكثر الناس فيه. فلما رأى عبد الله بن ياسين و أعدادهم وحماسهم قال لهم: اخرجوا فأنتم المرابطون. هذه رواية ابن عذارى الذي يق أيضاً: إن هذا هو أصل تسمية المرابطين. هناك أيضاً من يقول إن عبد الله بن ياسين أط عليهم هذا اللقب عند انتصارهم في إحدى المعارك.

وعندما اكتمل عدد الأشداء الشجعان من المرابطين ألفاً أمرهم عبد الله بن ياس بالخروج من الجزيرة إلى البر والسير للجهاد، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من اللمتونيين و الجداليين وغيرهم من الصنهاجيين. كان ذلك سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، وكانت القيا والقيادة في تلك القوة المرابطية الأولى للمتونة، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر بين القبا الصنهاجية الكثيرة التي خلفت أثراً بعيداً في تاريخ الإسلام.

هنا يظهر عبد الله بن ياسين في ثوب القائد العسكري، ويبدي مهارة لا بأس بها، وك حلمه البعيد هو القضاء على سلطان بني وانودين المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرو على المغرب الأقصى ويهددون الصنهاجيين جميعاً.

عبر عبد الله بن ياسين الصحراء برجاله إلى الشمال، فلما وصل وادي درعة انقض عل مسعود بن وانودين ورجاله أصحاب السيادة على سجلماسة واستخلصها منهم، واسترسل إل الشمال فاحتل سهل مراكش وكان ذلك سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م.

وإليك شجرة نسب ذلك البيت اللمتوني

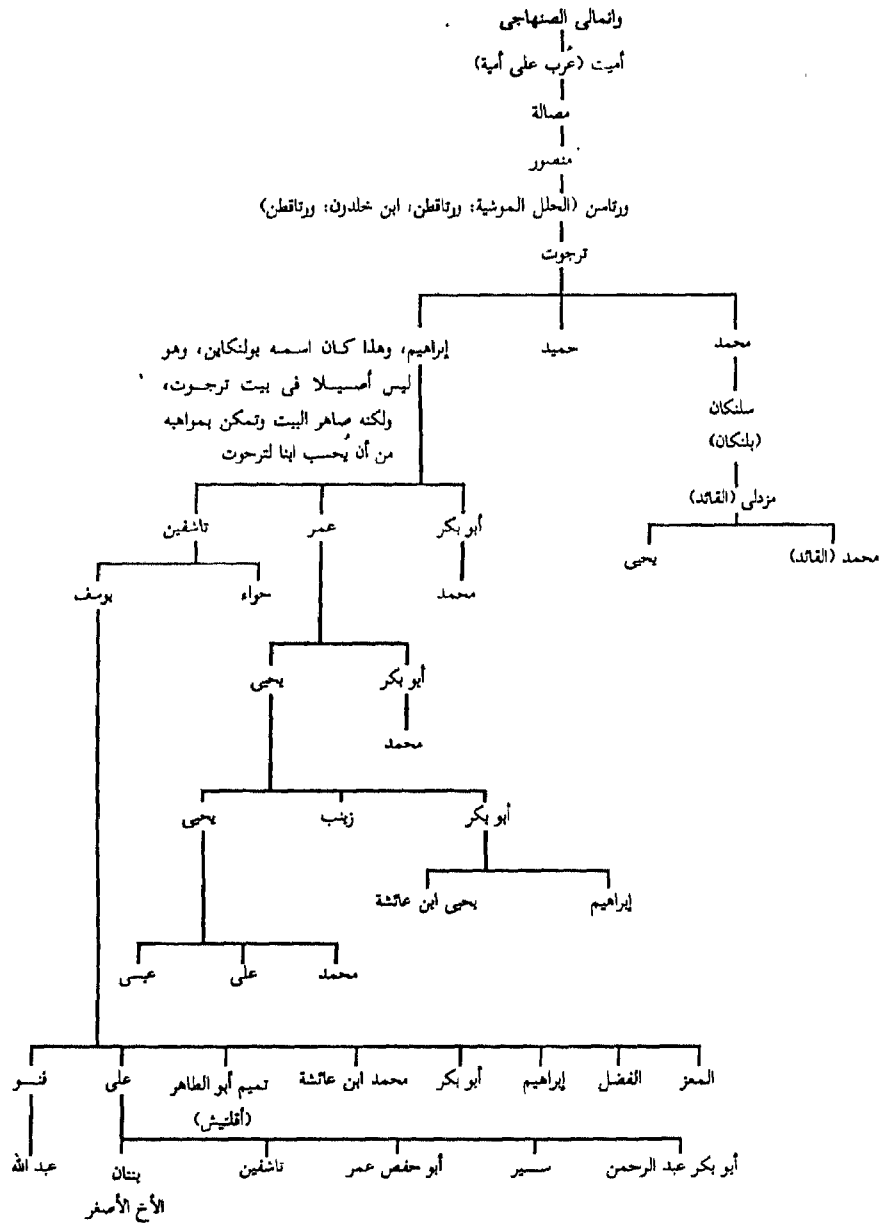
وائمالى الصنهاجى
أميت (عرب على أمية)
مصالة
منصور
ورتامن (الحلل الموشية: ورتاقطن، ابن خلدون: ورتاقطن)
ترجوت
محمد
حميد
إبراهيم، وهذا كان اسمه بولنكاين، وهو ليس أصيلا فى بيت ترجوت، ولكنه صاهر البيت وتمكن بمواهبه من أن يحسب ابنا لترجوت
سلنكان (بلنكان)
مزدلى (القائد)
محمد (القائد)
يحيى
أبو بكر
عمر
تاشفين
محمد
حواء
يوسف
أبو بكر
يحيى
محمد
أبو بكر
زينب
يحيى
إبراهيم
يحيى ابن عائشة
محمد
على
عيسى
المعز
الفضل
إبراهيم
أبو بكر
محمد ابن عائشة
تميم أبو الطاهر (أقليش)
على
فنو
أبو بكر عبد الرحمن
سير
أبو حفص عمر
تاشفين
بنتان
الأخ الأصغر
عبد الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد ذلك ارتد عبد الله بن ياسين إلى الجنوب فعبر الصحراء وهاجم أهل السودان فى حوض السنغال وأوقع بهم هزيمة منكرة، وفتح أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب إفريقية المدارية، فأخذت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وكزولة أو جزولة تتوسع جنوباً، ومعنى ذلك أن الإسلام كسر النطاق الوثنى الجنوبى ووصل إلى شعوب إفريقية السوداء من هذه الناحية، وذلك حادث تاريخى عظيم الأثر والمغزى.

وفى أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م - ١٠٦٩م، وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة التى جمعت متناقضات كثيرة من إيمان وخبث إلى شجاعة وميل إلى الاستمتاع وطموح إلى نشر الإسلام وطمع فى الخيرات. ولا نزاع فى أنه يعد من كبار الشخصات فى تاريخ الإسلام الإفريقى.

أبو بكر بن عمر :

وكان عبد الله بن ياسين يقوم بذلك الجهد كله تحت إمارة يحيى بن عمر الجدالى، أمير لمتونة وقبائل المرابطين، فلما مات هذا خلفه فى رياسة القبيلة أخوة أبو بكر بن عمر، واستمر هذا فى تأييد عبد الله بن ياسين، وعندما قتل هذا الأخير كان أبو بكر يعمل على تمهيد سلطان المرابطين فى سهل مراكش يساعده ابن عمه يوسف بن تاشفين.

وحوالى ٤٦١هـ/ ١٠٦٨- ١٠٦٩م كان سلطان المرابطين قد استقر فى سهل وادى تنسيفت الفسيح، وظهرت الضرورة لإنشاء عاصمة لهم فى وسط هذا السهل، وكانت هناك قريتان بدائيتان تسمى كل منهما «أغمات»، فى وسط السهل- والأغمات هو الاسم البربرى للمدينة البدائية التى تتألف من سور منيع فحسب تتخذه القبيلة شبه مخزن لحاجياتها وأدواتها ومأمناً لنسائها وأطفالها ومواشيها وسلاحها - وكان واحد منهما لقبيلة هيلانة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(إيت إيلان) والآخر لوريكة، (أوريكة) فاستقر رأى أبى بكر بن عمر على أن ينشئ البلد بين الأغماتين، وهكذا ولدت مدينة مراكش، وهى بالبربرية مروكش. ومعناها: قصر الحجر، وقد شرع أبو بكر بن عمر فى بنائها سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨- ١٠٦٩م. وهكذا نرى كيف أن هذا الرجل الذى ولد فى حوض السنغال عرف بفضل الإسلام وإيمانه به وحماسه له أن يضيف إلى تاريخ الحضارة الإسلامية مركزاً من أعظم مراكزها ومدينة من أجمل مدن الدنيا وهى مراكش، وعندما سيطرت صنهاجة على إقليم السوس وحوض نهر تنسيفت أخذت القبائل المصمودية تنضم إليه وتشترك فى قواتها، ومصمودة أو المصامدة مجموع قبائلى كبير كان يعمر معظم المغرب الأقصى، من الشمال حيث غمارة إلى الجنوب حيث نجد القبائل المصمودية الكبرى فى جبال الأطلس بفرعيها الكبير والصحراوى، وإقليم السوس المحصور بينهما جنوبى نقطة انفصالهما إلى سلسلتين جبليتين جنوبى جبل سيروا أو سروة، وكانت هذا القبائل تعمر سهل حوض نهر تنسيفت، وهيلانة ووريكة أو أوريكة اللتين ذكرناهما كانتا قبيلتين مصموديتين سيكون لهما شأن بعيد فى إقامة الدولة الموحدية التى تعتبر دولة مصمودية كما سنرى. ومن ذلك الحين سنجد المصامدة يشتركون فى جيوش الصنهاجيين ويحاربون معهم فى كل الميادين، ولكن الرياسة كانت دائماً لصنهاجة، وقد كسب المصامدة بهذا الاشتراك خبر وتجربة فى ميادين الحروب والسياسة. وكان المصامدة أكثر عددا من الصنهاجيين وعندما ستتاح لهم الفرصة سينهضون بدورهم للتخلص من سلطان صنهاجة بدعوة من محمد بن تومرت الهرغى المصمودى، وسيكون ذلك ميلاداً لدولة الموحدين.

وبينما كان أبو بكر بن عمر يرقب العمال يبنون مدينة الجديدة وصلة خبر. خلاصته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلته لمتونة فى الصحراء وأنزلت بها مذبحة بشعة، فقرر العودة مسرعاً إلى منازل لمتونة لإنجادها. وقبل رحيله جمع قومه وطلب منهم أن يختاروا رئيساً لهم من بين أنفسهم ليقوم بأمرهم فى غيابه، فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين، وكان تاشفين أبو يوسف أخاً ليحيى وأبى بكر بن عمر بن إبراهيم بن ترجوت أو ترغوط، وترك أبو بكر بن عمر ثلث الجيش المرابطى مع يوسف وأخذ الثلثين ومضى إلى منازل لمتونة وراء الصحراء سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م.

انقسام قوة المرابطين قسمين :

واحد يعمل فى المغرب ثم الأندلس

والآخر يعمل فى إفريقية المدارية الغربية :

من ذلك الحين انقسمت قوة المرابطين قسمين: واحد منهما مركزه سهل مراكش وميدان نشاطه المغرب ثم الأندلس ويقوده يوسف بن تاشفين، والثانى يعمل فى إفريقية المدارية الغربية ويقوده أبو بكر بن عمر.

ولم يكن ذلك الانقسام إضعافاً للقوة المرابطية، بل بعثاً جديداً لها، فإن زعيمى الحركة يوسف بن تاشفين وأبا بكر بن عمر انفصلا على تراض بينهما، وكان المفروض أن أبا بكر بعد أن يخمد الفتنة فى موطنه يعود إلى قيادة المرابطين جميعاً، ولكن ذلك لم يحدث؛ لأن يوسف اجتهد فى أن ينظم قوته على أنها دولة قائمة بذاتها فضم إلى صفوفه أعداداً كبيرة من الصنهاجيين والمقاتلة السودانيين وضم إلى هؤلاء فرقة من محترفى الحرب من النصارى الذين كثروا فى غربى أوروبا فى تلك العصور ودخلوا فى خدمة من يؤجرهم من الملوك، وكانوا يسمون فى الجيش المرابطى بالأعلاج، وقد أسلم الكثيرون منهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأصبحوا من خيرة جند المرابطين نذكر من بينهم ريفرتر Reverter الذى يسمى فى نصوصنا بالربرطير وابنه القائد المشهور على بن الربرطير.

زينب بنت إسحاق النفزاوية :

كانت زينب هذه امرأة ذات جمال وذكاء، وكانت موفقة فى حياتها كلها، فزعم بعض الناس أن الجن تخدمها، وأصلها من بيت كبير من بيوت قبيلة نفزاوة الزناتية، فتزوجت أول الأمر مسعود بن وانودين، ذلك الرئيس الزناتى الذى كان يسود إقليم سجلماسة، فلما تغلب المرابطون على سجلماسة وقتلوا مسعود بن وانودين تزوجها أبو بكر بن عمر، ولم يكن قد وصل إلى رئاسة المرابطين؛ إذ إن الرئيس كان أخوة الأكبر يحيى بن عمر. ويقول الرواة إنها جلبت السعد لأبى بكر بن عمر، فأصبح أمير المرابطين، ويزعمون أنه أنشأ مراكش ليعرس فيها بزوجته الجميلة المسعدة، فلما انصرف أبو بكر بن عمر إلى الجنوب لينقذ قبيلته لمتونة من عدوان جدالة وجد أنه لا يستطيع ترك امرأة جميلة ويغيب عنها مدة طويلة، ورأى أن يطلقها، ويقال إنها هى التى طلبت إليه ذلك، عصمة لنفسها، فرضى.

فلما مضى أبو بكر لحربه تزوجت ابن عمه يوسف بن تاشفين، فكان فى هذا كما يقولون سعده، بل يزعمون أنها دلته على كنوز مال عظيمة كانت قد جمعتها من زوجيها السابقين، فانتفع يوسف بهذا المال فى إقامة ملكة، وقد أعجبت زينب بيوسف وأخلصت له، وكانت امرأة واسعة الذكاء فكان ذكاؤها معيناً له على أمره، وكان يستشيرها فيما يحزبه من أمور فتقدم إليه الرأى السديد.

ومن آرائها السديدة أنه لما عاد أبو بكر بن عمر من الجنوب ليستعيد رياسة المرابطين تحير يوسف بن تاشفين فى أمره، لأنه أراد أن يتمسك بالإمارة ولم يشأ أن يغضب ابن عمه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبا بكر فى الوقت نفسه، فقالت له زينب إن أبا بكر رجل مروءة ودين وإنه لن يتمسك بالإمارة تمسك الطامعين فى الدنيا، وإن على يوسف ـ لهذا ـ أن يحسن لقاءه ويتودد إليه ويقدم له أكثر ما يستطيع من الهدايا ليرضى بها نفوس أصحابه، ويتفاهم معه فى هدوء. وفعل يوسف ذلك، وتم التراضى بين الرجلين على أن يتقاسما الجهاد: واحد يجاهد فى الجنوب وهو أبو بكر بن عمر والآخر فى الشمال وهو يوسف بن تاشفين، وتم الاتفاق بين الرجلين فى مشهد عظيم فى فسيح من الأرض، جلس فيه يوسف وأبو بكر فى الوسط وخلف كل من الرجلين وقف رجاله صفوفاً وتنازل أبو بكر عن كل حق له فى ما بيد يوسف، وتقاسما الرجال ومضى كل منهما لشأنه، وهذه أول مرة نرى فيها هذا التراضى والاتفاق بين أميرين مسلمين متنازعين على ملك واحد.

والحق أن أبا بكر بن عمر أحسن صنعاً بذلك، فقد مضى إلى الجنوب ليجاهد فى بلاد السودان وأنشأ لنفسه ملكاً واسعاً فى حوض السنغال أو فى بلد السودان كما يقول المؤرخون العرب، وفتح بلاداً واسعة جنوبية حتى وصلت جيوشه حوض نهر النيجر الأعلى، وقد أصبحت هذه البلاد الإسلامية المرابطية الجنوبية عاملاً هاماً فى نشر الإسلام فى إفريقية المدارية ثم الاستوائية، وعلى أيدى رجال مثل أبى بكر بن عمر وخلفائه تفتحت الأبواب للإسلام فى هذه النواحى الإفريقية.

وكان الإسلام قد دخل مدينة أودغشت وانتشر بين أهلها قبل دخول المرابطين البلاد. وكانت أودغشت مركزاً تجارياً كبيراً شمالى حوض السنغال. وكانت أكبر مراكز القوافل وأكبر أسواق بلاد إفريقية الغربية المدارية التى كانت تعرف إذ ذاك ببلاد غانة، فكان التجار يخرجون من سجلماسة على الحدود الشمالية للصحراء فى المغرب الأقصى ثم يقطعون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحراء ليصلوا أودغشت ويحطوا رحالهم فيها للقيام بعملياتهم التجارية، وقد اشتهرت أودغشت بوفرة البضائع التى تباع فى أسواقها وخاصة تبر الذهب الذى كان يجمع من مجارى الأنهار ومن مواضع قليلة فى الجبال، وكانت أودغشت خاضعة لملك غانة الذى يسميه البكرى (فى ما بين سنتى ٣٤٠ و ٣٥٠ هجرية) تين بروكانه بن وسنو بن نزار، وكان صنهاجياً وإن كنا لا نعرف ما إذا كان مسلماً، ولكن الإسلام كان منتشراً فى بلاده فى نطاق ضيق، وكان القرآن يعلم للصبيان فى مكاتب أودغشت. وكان يتبع ملك غانة عدد كبير من السلاطين، أى حكام النواحى.

وكانت غالبية أهل غانة من السود الكعارتة والماسينا والبانانجا والفولا. وكان رئيس أودغشت بيدى طاعة لملك غانة ولكن طاعته كانت اسمية، وكان يخشى دائماً أن يستولى الغانيون على بلده طمعاً فى خيراتها، ولهذا فقد كان يداخل الصنهاجيين ليستعين بهم إذا أراد الغانيون به شراً، ولهذا فنحن لا نستبعد أن يكون قد دخل فى الإسلام.

وعندما بدأ المرابطون يتوغلون فى الجنوب بقيادة عبد الله بن ياسين أولاً ثم أبى بكر بن عمر ثانياً وجدوا ترحيباً من أهل أودغشت وصاحبها، إذ إن هؤلاء كانوا يخشون خطر الغانيين ، مثلهم فى ذلك مثل الصنهاجيين. فكان ذلك مما يسر للمرابطين أمر الاستيلاء على بلاد غانة كلها بما فى ذلك أودغشت وتحويلها إلى بلاد إسلامية.

بذلك يكون الجناح الجنوبى لدولة المرابطين الذى قاده أبو بكر بن عمر قد أدى للإسلام خدمة تعدل ما أداه فرعها الشمالى الذى قاده يوسف بن تاشفين؛ لأن تحول بلاد غانة وأهلها للإسلام فتح للإسلام فى الجنوب ـ فى بلاد إفريقية المدارية ـ ميادين واسعة للانتشار، وأتاح لأهل تلك البلاد فرصة الدخول فى ميدان الحضارة الإسلامية. حقاً إن سلطان المرابطين لم يدم فى الجنوب، إذ إنه تلاشى بعد موت أبى بكر بن عمر، ولكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلام ظل يتوسع حتى بعد أن سيطر على بلاد غانة قوم من السود يسمون بالصوصو وكانوا على الوثنية. ولم يمنع ذلك الإسلام من التغلب على أولئك الوثنيين وإقامة منار الإسلام من جديد، وكان ذلك على أيدى رجال قبائل الماندنجى الذين أقاموا دولة مالى الإسلامية، كانت أكبر وأطول عمراً من دولة غانة، ثم أعقبتها دولة صنغى. وعلى أيدى رجالها أصبحت بلاد إفريقية المدارية الغربية كلها بلاد إسلام. والفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى المرابطين الذين أقاموا أول دولة إسلامية فى تلك البلاد، وهم أصحاب الفضل فى دخول مدينة تنبكت وأهلها فى الإسلام.

وأصبحت تنبكت إسلامية وظلت بعد ذلك مركز الإسلام الأكبر فى إفريقية المدارية وخاصة عندما قامت دولة مالى الإسلامية على أنقاض دولة غانة، ويقول المقريزى إن أول من أسلم من ملوك مالى هو برمندانة، أما ابن خلدون فيقول: إن برمندانة هو أول من حج وهو يسميه برمندار (العبر ٦- ٤٢٢) وكان ذلك فى ما يبدو سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٣٥ ميلادية، وقد أخطأ المقريزى، لأن برمندانة لم يكن أول من أسلم من ملوك مالى، فأول ملوكها وهو مارى جاقة كان مسلما، ولا يستبعد أن يكون برمندانة هو أول من حج من ملوك مالى.

وبعد ذلك اتسع نطاق الإسلام فى البلاد حتى أصبح الديانة الغالبة على أهلها حتى مداخل نطاق الغابات. وكان رجال الماندنجى- وهم أقوى قبائل مالى- من أكثر الناس حماساً للإسلام وسعياً فى نشره، وعلى أيديهم أصبح الإسلام الدين الرسمى للمملكة كلها، وكان المسلمون هناك على مذهب مالك، وهو المذهب الغالب فى المغرب والأندلس، ومن ذلك العصر فصاعداً ستصبح بلاد مالى بلادا إسلامية وتولى الماندنجى نشر الإسلام فى من جاورهم من أهل القبائل مثل الحوسى الذين يسمون بالهاوزا الآن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبذلك يكون المرابطون قد أدوا للإسلام خدمة كبرى تعادل ما سيقدمون إليه من أياد بيضاء فى القضاء على المذاهب المنحرفة المعروفة باسم زندقة برغواطة فى شمالى المغرب الأقصى ثم جهادهم فى سبيل الإسلام فى الأندلس. ومن منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وعلى أيدى المرابطين بدأ تاريخ الإسلام المجيد فى هذه البلاد، فانتشر فى غربى إفريقية كله حتى حوض النيجر، وهناك التقى بتيار الدعوة الإسلامية المقبل إلى ما يعرف الآن بجمهورية تشاد من وادى النيل بواسطة الطريق التجارى القديم الذى يشرع من مدينة أسنا فى مصر ويسير فى نواحى دارفور ثم فى بلاد واداى حتى يصل إلى بحيرة تشاد وهى باب إفريقية المدارية، وكذلك عن طريق ممر فزان وكوار عبر الصحراء الكبرى إلى تشاد.

يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين فى المغرب والأندلس
٤٦٣ - ٥٠٠هـ / ١٠٧١ - ١١٠٧م:

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعاظم الرجال الذين أنجبهم المغرب الإسلامى، وكان لهم أبعد الأثر فى توجيه تاريخه، وقد قام يوسف بدور رئيسى فى تاريخ المغرب نفسه ثم فى تعريب المغرب الجنوبى والشرقى وتعميق جذور الإسلام فيه ثم فى تاريخ الأندلس، حيث أتيحت ليوسف الفرصة لإنقاذ الإسلام الأندلسى الذى تهدده الخطر الداهم خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى- الحادى عشر الميلادى.

ويمتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية التى تميز بها الكثير من بناة الدولة الإسلامية ورجالها الذين تولوا أمرها فى أوقات الأزمات العصيبة التى ألمت بها على طول تاريخها، وأولى هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام، ثم النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامى على أنه عالم واحد متماسك، إذا تهدد الخطر جانباً منه لم يلث الخطر أن يمتد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى بقية الأجزاء ويتهددها، ثم الإيمان بالعروبة وثقافتها على أنها عصب الكيان الإسلامى العام، ثم العدالة، وهى أجمل ما تحلى به عظماء حكام المسلمين، وأخيراً النشاط الواسع والطموح إلى توسيع رواق الإسلام.

ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين فى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م كل النتائج السياسية التى حققها قبله فى المغرب عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر، عندما جعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته، وبفضله صارت مركز تجمع للصنهاجيين الصحراويين الجنوبيين، وخصوصاً من قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة، واهتم كذلك بمراكش وسهلها، فاتسع العمران فيها وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة، ثم جاء يوسف بن تاشفين فتتبع بقايا المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسودون من قبل هذه المنطقة ومن فيها من الصنهاجيين، فمد سلطانه إلى تادلا ووصل سلطانه إلى وادى بورجرج، ووصل بذلك إلى أبواب ريف تامسنا وجبال الريف الجنوبية وكانت قلب مواطن برغواطة.

ونهض يوسف لحرب الزناتيين الذين كانو يسيطرون على حوض وادى سبو الفسيح. ومن حسن حظ يوسف أن الزناتيين هناك كان أمرهم قد تفرق بين عدد من الرؤساء مثل فتوح بن دوناس بن حمامة صاحب فاس ومعنصر بن المعز بن زيرى بن عطية صاحب مكناس.

وكان معنصر هذا قد تغلب على فاس أيضاً فزحف إليه يوسف بن تاشفين، وتمكن بعد حرب طويلة من فتح بلادهم والاستيلاء على معاقلهم ومد سلطانه إلى جبال الريف، ودار بينه وبين معنصر وغيره من أمراء مغراوة وبرغواطة صراع طويل انتهى بانتصاره عليهم ودخوله فاس سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، وبهذا امتد سلطان المرابطين فشمل جبال الريف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وريف تامسنا ووصل إلى إقليم طنجة، وقد اجتهد يوسف أثناء حربه تلك فى القضاء على زندقة برغواطة ومحو معالمها وإرساء قواعد السنية فى جبالهم، وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد واصل عمل الأدارسة فى نشر الإسلام السنى الصحيح فى المغرب الأقصى.

وقد أصلح يوسف بن تاشفين مدينة فاس بعد دخوله إليها، فجعلها مدينة واحدة بعد أن كانت مدينتين، وأدار عليها سوراً حصيناً، وأكثر فيها من بناء المساجد فأتم بذلك عمل الأدارسة فى عاصمتهم أيضاً.

ونجح يوسف بن تاشفين بعد ذلك فى التغلب على كل القبائل صاحبة السلطان فى هذه النواحى، وخاصة غمارة ومكناسة وغياثة وبنى مكود، واستولى على ممر تازا وبلدة تازا التى تقع على مدخله من ناحية المغرب الأقصى، وأمر بإنشاء مسجد فيها، ومن ممر تازا مد يوسف سلطانه على وادى ملوية سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م ودخل فى طاعته شيوخ القبائل فى ناحية تلمسان، ثم مد يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين حتى مدينة الجزائر وأنشأ فيها مسجداً لا زال باقياً إلى اليوم، وكانت هذه المدينة آخر ما وصل إليه سلطان المرابطين شرقاً.

عقب ذلك تجرد يوسف للاستيلاء على سبتة وطنجة، والأخيرة كانت عاصمة المغرب الشمالى، وكانت البلدتان إلى ذلك الحين من توابع الأندلس. وقد بدأت تبعيتهما له على يد عبد الرحمن الناصر، وكان قد استبد بأمر سبتة فى عصر الطوائف رئيس بربرى من رجال بنى حمود أصحاب مالقة يسمى سقوط أو سكوت البرغواطى، وقد انتهز هذا الرجل فرصة تفرق أمر الخلافة وضياع دولة بنى حمود فاستقل بسبتة وأصبح أمير طوائف بها وتسمى بالمنصور المعان سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦٢م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨- ١٠٧٩م أرسل يوسف قائده صالح بن على فتمكن من القضاء على سكوت فى سبتة ثم استولى على طنجة من يد ضياء الدولة ابنه، وبذلك يكون يوسف قد وحد المغرب الأقصى كله تحت سلطانه من سجلماسة إلى طنجة، بل وصل بحدوده إلى تلسمان والجزائر، وهذه هى المرة الأولى التى يتوحد فيها المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط تحت سلطان واحد؛ ولهذا يعتبر يوسف بن تاشفين منشئ المغرب الأقصى الموحد وواضع أساس وحدة بلاد المغرب، وقد أكمل بذلك ما بدأ به الفاتحون العرب الأول عندما مدنوا شمالى المغرب الأقصى ونظموه متخذين طنجة عاصمة لهم، ثم مدنوا جنوبى المغرب الأقصى وجعلوا سجلماسة قاعدة له، ثم جاء الأدارسة فوسعوا نطاق المغرب الإسلامى حتى شمل حوض نهر سبو وامتد إلى وادى أم الربيع، أما إتمام تكوين المغرب الأقصى الإسلامى فقد قام به المرابطون كما رأينا.

وقد تمكن رجال يوسف بن تاشفين من القضاء على كل سلطان كان للقبائل الزناتية شرقى تلمسان وحتى حدود مدينة الجزائر الحالية، ولم يتعدوها إلى ما يليها شرقاً؛ لأن بقية المغرب الأوسط وإفريقية كانت إذ ذاك داخلة فى دولة بنى زيرى الصنهاجيين الذين خلفوا الفاطميين فى حكم إفريقية وجزء من المغرب الأوسط كما رأينا، وقد انفصل عن بنى زيرى هؤلاء أبناء عمهم بنو حماد المعروفون بأصحاب القلعة وهى قلعة بنى حماد فى المنطقة الجبلية المعروفة باسم بلاد القبائل كما ذكرنا آنفاً، وتقع شرقى مدينة الجزائر، ومعنى ذلك أن المغرب كله من طرابلس إلى المحيط أصبح خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى خاضعاً للصنهاجيين موحداً تحت راياتهم، ويسمى ابن خلدون الصنهاجيين الذين ينتسب إليهم بنو زيرى وبنو حماد بصنهاجة الجيل الأول، ويسمى الصنهاجيين الذين ينتسب إليهم المرابطون بصناجة الجيل الثانى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أحسن يوسف بن تاشفين تنظيم دولته الواسعة هذه التى امتدت من الجزائر إلى المحيط ومن طنجة إلى سجلماسة. وكان تنظيمه لها قبلياً خالصاً، أى إنه اعتمد فى إقرار الأمن وجباية الأموال على القبائل الصنهاجية السائدة فى النواحى، واعتبرها مسؤولة عن ذلك، وأرسل لها القضاة، واجتهد فى القضاء على كل محاولة للزناتيين فى استعادة السلطان فى أى ناحية من نواحى المغرب، وحرص يوسف إلى جانب ذلك على نشر الإسلام السنى الصحيح عن طريق الشيوخ والفقهاء الذين كان يرسلهم إلى منازل القبائل ويأمرهم ببناء المساجد والعناية بتحفيظ الناس القرآن وتعلم العربية.

وكانت العادة أن يعهد يوسف فى حكومة النواحى وولاية المدن إلى رؤساء من القبائل الصنهاجية التى حملت عبء الدولة المرابطية وهى لمتونة ومسوفة وجدالة، ثم انضمت إليها لمطة وجزولة وتارجا وبعض القبائل الأقل أهمية، ومن هنا يمكن أن يقال إن المرابطية- أى روح الجهاد فى سبيل الدين والتقشف والتزام قواعد الدين- كانت العصب الحقيقى الذى قامت عليه هذه الدولة، وكان يوسف بن تاشفين نفسه رائداً فى هذا المضمار، فقد كان رجلاً شديد الإيمان فاضل الخلق مستعداً دائماً لنصر الإسلام.

المرابطون يعبرون إلى الأندلس لنجدة الإسلام المهدد بالأخطار :

فى حدود سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته وامتداد سلطانه فى المغرب. وقد استطاع خلال اثنتى عشرة سنة من العمل الدؤوب والحروب المتصلة أن ينشئ أكبر وأقوى دولة إسلامية قامت فى المغرب إلى ذلك الحين. وكانت دولته دولة مغربية صرفة قامت على أيدى رجال من صميم العترة المغربية. وقيامها يمثل لنا القمة التى وصل إليها نضج المغرب الإسلامى إلى ذلك الحين. فبعد محاولات كثيرة قام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بها العرب البلديون، أو عرب المشرق، لإقامة دول فى المغرب، مستعينين بأهل البلاد كما رأينا فى حالات الدول الإدريسية والفاطمية وبنى رستم فى تاهرت، قامت الآن دولة مغربية خالصة أقامتها قبائل صنهاجية استعربت استعراباً سليماً، وعرفت الإسلام السنى الصحيح. قامت لتشد أزر السنة والجماعة، أما الدول التى قامت قبل ذلك على غير الإسلام السنى الصحيح مثل محاولات البرغواطيين والمغراويين فلم يكتب لها التوفيق.

وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين إذ ذاك فى العالم الإسلامى كله بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد مخلص، ولا غرابة والحال هذه أن نسمع بأن الإمام الغزالى كان يثنى على يوسف بن تاشفين كثيراً بل يقال إنه فكر فى الانتقال إلى المغرب للعيش فى كنف ذلك الأمير العظيم، وليس هناك ما يثبت ذلك بصورة قاطعة، ولكنه يدل على أى حال على ما بلغه يوسف بن تاشفين إذ ذاك من صيت بعيد.

فى ذلك الحين كان الإسلام فى الأندلس قد وصل إلى درجة من الاضمحلال جعلت مصيره فى الميزان؛ لأن ملوك الطوائف الذين تقاسموا رقعة الأندلس بعد ذهاب أمر الخلافة سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣١م ما زال يحارب بعضهم بعضاً حتى تضعضعت قواهم جميعاً، ووصلوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى إلى حد أصبحوا معه يدفعون الجزية لجيرانهم من ملوك النصارى. ومن سوء حظهم أن تولى عرش قشتالة وليون فى ذلك الحين ملك طموح قوى هو ألفونسو السادس الذى يسمى فى مراجعنا باسم الأذفونش، وقد طال عمره وامتد سلطانه، وشجعه ضعف المسلمين وتفرق أمرهم فأصبحت ممالكهم تحت رحمته، ودفع معظم أمرائهم الجزية له، وأهمهم بنو عباد أصحاب إشبيلية الذين مدوا سلطانهم على قرطبة أيضاً، بنو الأفطس أصحاب بطليوس وبنو هود أصحاب ألمرية وبنو زيرى ابن زاوى أصحاب غرناطة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت هذه الدول جميعاً تعانى ضعفاً سياسياً وعسكرياً بالغاً، وإن الإنسان ليتعجب من تظاهر بنى عباد مثلاً بأنهم ملوك عظماء مع أن قوتهم العسكرية لم تزد على بضع مئات من الفرسان معظمهم من المرتزقة الذين لا يؤمنون على دين أو وطن!.

ولكن أضعف هذه الدول جميعاً كانت دولة بنى ذى النون أصحاب طليطلة من (٤٢٩- ٤٦٧هـ/ ١٠٣٧- ١٠٧٥م) وكان طليطلة إذ ذاك إمارة مستقلة قامت فى منطقة ولاية طليلطة أيام الخلافة، وكانت تمتد من وادى تاجة إلى شمالى الوادى الكبير بقليل، فكانت بهذا أكبر إمارات الطوائف مساحة، وكان يتولاها منذ سنة ١٠٤٣م أمير محدود الذكاء هو يحيى بن إسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون، وكان رجلاً مسناً مصاباً بأمراض عدة وقد اشتهر بأنانيته العمياء وقصر نظره، وانصرافه إلى الاستمتاع بالدنيا رغم ضعف صحته، وبلغ من قصر نظره وانعدام تفكيره فى أمر الجماعة الإسلامية أنه كان يفضل الارتباط بعلاقات الود والصداقة مع ملوك إسبانيا النصرانية على التعاون مع جيرانه من ملوك الطوائف المسلمين، ظناً منه أن النصارى ليسوا خطراً عليه، وإلى بلاطه لجأ ألفونسو ابن فرناندو الأول ملك ليون عندما طرده أخوه سانشو الثانى من بلاده، وبعد قليل أصبح ألفونسو هذا ملكاً على قشتالة بعد مقتل أخيه سانشو عند أسوار مدينة سمورة، وقد تمكن ألفونسو السادس هذا من تحديد مملكة ليون وكونتية قشتالة فى مملكة واحدة، واتسعت رقعة أملاك ألفونسو السادس، وبدلاً من أن يرد ألفونسو جميل المأمون بن ذى الذى آواه وقت الشدة أخذ يستعد للانقضاض على طليطلة لأول فرصة تسنح، ومات المأمون بن ذى النون سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م وخلفه حفيد عاجز جبان يسمى يحيى ويلقب بالقادر بن ذى النون فما أسرع ما احتال ألفونسو السادس عليه ودخل طليطلة واستولى عل ولايتها الواسعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، وبعث به إلى بلنسية مع نفر من فرسانه فنصبوه ملكاً عليها تابعاً لألفونسو السادس ملك قشتالة وليون. أما الفارس رودريجو دياث الملقب بالسيد القمبيطور El cid Compeador فقد انتقل إلى سرقسطة ودخل فى خدمة أصحابها من بنى هود.

هذا الحادث الخطير قلب الوضع فى الأندلس تماماً. فجأة امتدت مملكة قشتالة وليون فوصلت إلى حدود الوادى الكبير ودخلت فى حمايتها مملكة بلنسية وهددت كل إمارات الطوائف فى الأندلس بالزوال، فى حين أن السيد القمبيطور استطاع أن يجمع أعداداً كبيرة من اللصوص وأهل الحرابة، نشر بهم الرعب والفوضى فى شرقى الأندلس، ثم استولى على بلنسية ونصب نفسه أميراً عليها بعد حصار طويل ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م.

هنا أفاق الطوائف من غفلتهم وأسرعوا يتداركون ما فات، ولكن الأوان كان قد فات، فلم يستطيعوا مواجهة الخطر النصرانى بها، خاصة وأن ضعف المسلمين وعجزهم عن حماية أراضيهم شجع مملكة أرغون وإمارة البرتغال فأخذت كل منهما تستولى على ما قدرت عليه من بلاد المسلمين. وبلغ من ضعف هؤلاء وخوفهم أنه لم يبق فى كيان دولهم أى قوة أو حيوية، حتى إن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية الذى تصوره لنا النصوص ملكاً عظيماً، ملكه الهلع وأسرع يؤدى جزية كبيرة وأصبح تابعاً لملك قشتالة وليون.

هذه هى الظروف التى اضطرت ملوك الطوائف فيها إلى طلب النجدة من يوسف بن تاشفين، وقد دفعتهم إلى الاستنجاد به شعوبهم دفعاً، وذهبت إلى يوسف وفود من فقهاء الأندلس ترجوه إنقاذ الإسلام المهدد بالزوال فى الأندلس.

ورحب يوسف بالفرصة لأنه كان لا يتأخر عن القيام بأى عمل فيه نفع للإسلام أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مد لسلطانه، فاستعد للعبور إلى الأندلس مع ما فى ذلك من المخاطرة، وعبر بجيش مرابطى ضخم فى أواسط ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م واتجه للقاء العدو تصاحبه قوات قليلة من إشبيلية وبعض أمراء الطوائف فى صيف ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. كان اللقاء بين المرابطين وقوات ألفونسو السادس فى موضع يسمى الزلاقة Sacrajas جنوب غربى بطليوس، وأبدى المرابطون من ضروب البسالة ما مكنهم من القضاء على قوات ألفونسو السادس وإلحاق هزيمة ساحقة بها، وفر ذلك الملك الذى طالما عاث فى بلاد الإسلام، فر على وجهه فى لمة قليلة من فرسانه حتى وصل إلى طليطلة وتحصن فيها.

هذا الانتصار الكبير كان له دوى عظيم فى الأندلس كله وامتد صداه إلى أوروبا النصرانية، فأما فى الأندلس فقد اطمأن أهل الإسلام فى ما بقى للمسلمين من البلاد وهدأ روعهم وتماسكوا، وثبتت جبهة الإسلام بعد طول تراجع وتصدع، وتوقف الزحف النصرانى وساد بلاد إسبانيا النصرانية خوف شديد من يوسف بن تاشفين والمرابطين والمسلمين جميعاً، وامتد الخوف إلى بلاد أوروبا كلها، فدعا البابا إلى حرب صليبية يجتمع النصارى فيها كلهم لمواجهة المسلمين، وقد صدر بذلك مرسوم بابوى Bula Pontifical عن المجمع الدينى الذى انعقد فى اللاتران سنة ١١٢٣م أى بعد معركة الزلاقة بثمان وثلاثين سنة، ولكن سبقت ذلك حملات صليبية حقيقية على الأندلس أولها حملة صليبية على بربشتر فى سنة ١٠٦٤م التى خرب فيها الصليبيون هذا البلد الإسلامى الصغير التابع لمدينة وشقة من مدن الثغر الأعلى.

ولم يستطع يوسف أن يفيد من نصره فى معركة الزلاقة الفائدة الكاملة فقد كان عليه أن يسارع بالمسير نحو طليطلة ليكمل العمل العظيم الذى قام به، ولكن ذلك لم يكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممكناً له في الظروف التي كان فيها، فإن دولته في المغرب كانت مترامية ولم يكن يستطيع الابتعاد عنها طويلاً لكثرة الأعداء والمنافسين، فكان لا بد له من أن يعود إلى المغرب، ثم إنه كان قد أخذ معه إلى الأندلس خيرة مقاتليه وقواده وكان لا بد لهؤلاء من العودة إلى المغرب. ومن ناحية أخرى لم يجد يوسف بن تاشفين من رؤساء الأندلس تأييداً له وإخلاصاً للجهاد، بل ما كادت جيوش المرابطين تحقق هذا النصر حتى بدأ بعض أمراء الطوائف بالتآمر عليه وعلى جنده.

ولم يكن يوسف ليستطيع مواصلة الجهاد في الأندلس إلا إذا أصبح له وضع قانوني في تلك البلاد، فإلى ذلك الحين كان مجرد أمير مسلم مجاهد أقبل لعون إخوته المسلمين، ولم تكن بلاد الأندلس بلاد يوسف بن تاشفين، ومن ثم فإنه لم يكن يستطيع أن يصدر أمراً إلى أهل بلد أو حاكم ولاية، بل لم يكن له حق في أن يحصل على المؤن اللازمة لجنوده إلا بالشراء. فلم يكن له في الأندلس وضع واضح سواء بالنسبة لأهل الأندلس أو بالنسبة لأرض الأندلس نفسها أو بالنسبة لأمراء الأندلس الذين كانوا يرون أنفسهم أصحاب ما بقي للإسلام في الأندلس من أرضين.

لهذا عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد موقعة الزلاقة وقد أدرك أن هذا النصر لن ينقذ الأندلس إلا إذا كان له ولجنده وضع شرعي في الأندلس يمكنه على الأقل من اتخاذ قاعدة عسكرية في الأندلس ليواصل منها القتال. ومهما كانت أهمية نصر الزلاقة، فإنه لم يكن إلا بداية، وكان لا بد أن تعقبة انتصارات أخرى ويستمر الصراع مع قوات النصرانية بشكل إيجابي متصل حتى يتم نصر الإسلام بصورة حاسمة، ولا شك في أنه كان يفكر في ذلك وهو عائد إلى المغرب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم عاد يوسف إلى الأندلس بعد سنتين لكى يقضى على طائفة من فرسان النصارى كانوا قد اتخذوا لهم مركزاً حصيناً فى قلعة تسمى أليدو Aledo ويسميها العرب لبيط- قرب مرسية فى شرقى الأندلس- وفى هذه المرة أحس يوسف أن أمراء الطوائف يتآمرون عليه مع النصارى فلم يستطع أن يستولى على هذه القلعة الصغيرة وعاد إلى المغرب.

وفى سنة ١٠٨٩م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الثالث الذى قام فيه بعزل ملوك الطوائف عن إماراتهم وأقام نفسه والياً على الأندلس مكانهم، لكى تتحدد مسؤوليته عن الأندلس ويستطيع مواصلة الجهاد. وقد استثنى يوسف من ذلك العزل أمير سرقسطة الذى دخل فى طاعته. فى هذه المناسبة عزل يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وأخذه معه إلى المغرب حيث قضى بقية عمره فى أغمات جنوبى مراكش، وفى هذا المنفى أو الأسر كما يسميه المعتمد قال هذا الأمير الشاعر أجمل أشعاره وأصدقها فى رثاء نفسه والتحسر على ما ضيع من فرص للعمل والجهاد.

بهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعاً جعل منها أمبراطورية تمتد فى قارتين، حدودها الشمالية فى ما بين نهر تاجة ووادى آنه فى شبه جزيرة إيبيريا فى أوروبا وحدودها الجنوبية فى إفريقية المدارية.

وفى كلتا الجبهتين كان على المرابطين أن يواصلوا جهاداً دينياً يتطلب سيلاً لا ينقطع من المقاتلين وأموالاً لا تحصى، ولو أن رؤساء الأندلس وقفوا إلى جانب يوسف بن تاشفين وأيدوه وشاركوا فى الجهاد لثبتت جبهة الإسلام هناك بصورة نهائية، ولكن بينما كان شعب الأندلس يتعطش للجهاد ويبدى كامل الاستعداد لمواجهة العدو كان رؤساء بلاد الأندلس منصرفين إلى إقامة الصعاب والعقبات فى وجه إخوانهم الذين أقبلوا لإنقاذ بلادهم،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبدلاً من السير إلى جانبهم نجد الكثيرين من أهل الفكر فى الأندلس يسخرون من المرابطين ويترفعون عليهم لأنهم كانوا قوماً على البداوة لم يفسدهم الترف الذى أضعف أهل الأندلس وجعلهم عاجزين عن الدفاع عن بلادهم.

وقد فرض الأندلس على المرابطين مسؤولية ثقيلة، فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد فيه دفاعاً عن الإسلام؛ لأن الأندلس كانت دار جهاد، وقد دخلها المرابطون مجاهدين وكان عليهم أن يستمروا فى هذا الصراع. ولم يجد المرابطون من رؤساء الأندلسيين عوناً فكان عليهم أن يقوموا بالعمل وحدهم، فإذا أضفنا إلى ذلك مسؤوليات المرابطين فى المغرب تبينا أنهم حملوا فى الواقع من المسؤوليات ما كانت قواهم عاجزة عن النهوض به على طول المدى.

كسب المرابطون فى الأندلس مواقع كبرى أولاها الزلاقة سنة ٤٧٨هـ - ١٠٨٦م وفى سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م استرد القائد المرابطى محمد بن مزدلى بلنسية وكانت قد وقعت فى يد الفارس القشتالى رودريجو دياث دى فيفار الملقب بالسيد القمبيطور Rodri-go Diaz de Vivar, El Cid Campeador واستعاد المرابطون بعد ذلك عدداً من المدن الأندلسية فى شرقى الأندلس مثل مربيطر Murviedro والمنارة Alménara والسهلة Santa Maria de Albarracin وغيرها، وانتصرت قواتهم على قوات ألفونسو السادس فى عدد آخر من المعارك عند قنسوجرة Consuegra وقونكة Cuenca وملجون Mugon.

وفى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٨م انتصر القائد المرابطى تميم بن يوسف على قوات قشتالة فى معركة حامية عند أقليش Ucles جنوب شرقى طليطلة، وقتل فى المعركة عدد كبير من قواد النصارى منهم سبعة من الأكناد بل قتل الأمير شانجة بن ألفونسو السادس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى أثناء هذا الصراع الطويل مع النصرانية فى الأندلس توفى يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٧م بعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة حافلة بالعمل والجهاد والإنشاء، وقد قام هذا الرجل سواء فى المغرب أو الأندلس بعمل جليل يجعل له مكاناً عظيماً بين أعلام المسلمين، فعلى يديه توحد المغرب الأقصى، ووصل إلى حدوده التى ثبت عليها بعد ذلك كقطر إسلامى عريق له حدود ثابتة واضحة يسكنه شعب قوى مسلم عربى الروح له خصائصه الجليلة، ويوسف بن تاشفين هو الذى أتم بناء مراكش وجعلها عاصمة أمبراطورية كبيرة، أما دور يوسف بن تاشفين فى الأندلس فحاسم، فلولا تدخله وتمكنه من هزيمة النصارى فى موقعة الزلاقة وغيرها لضاع أمر الأندلس الإسلامى فى أواخر القرن الخامس الهجرى- الحادى عشر الميلادى، وقد امتد عمر الأندلس نتيجة للتدخل المرابطى أربعة قرون أخرى بين مد وجزر وزيادة وانحسار وحرب وسلم ونصر وهزيمة.

وكان يوسف بن تاشفين رجلاً شديد السمرة فارع الطول، وهو دون شك أول رجل من إفريقية المدارية السوداء يصل إلى الرياسة والملك فى دولة كبرى ويقوم بدور كبير فى التاريخ العالمى، وكل ذلك بفضل الإسلام الذى وصل إلى هذه النواحى وفتح أبوابها للإيمان بالله ورسوله وأدخلها هى وشعوبها وبقية شعوب إفريقية المدارية بعد ذلك فى ميدان التاريخ.

على بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ - ٥٣٣هـ / ١١٠٧ - ١١٣٨م :

خلف يوسف ابنه على، وكان شاباً مكتمل التكوين فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره، وكان قد تدرب على شؤون الحكم والحرب وسياسة الدولة فى أيام أبيه، ولهذا سار بأمور دولته سيراً حثيثاً إلى الأمام وسجل اسمه بين عظماء تاريخ المغرب الإسلامى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان علي بن يوسف بن تاشفين إلى جانب ذلك أميراً شديد التدين حريصاً على الجهاد فى سبيل الإسلام منصرفاً إلى الدراسة ومجالسة الفقهاء، وقد قضى سنوات طويلة من صبوته وشبابه فى الأندلس، فدرس فى إشبيلية على أيدى فقهاء كبار، وحصل ثقافة واسعة، وعندما تربع على العرش تجلى عن أمير عالم فقيه مصقول الحاشية بما قبس من حضارة الأندلس، وكان يميل إلى احترام شخصيات الآخرين ويعطى رجاله مجالاً واسعاً حراً للعمل، ولهذا أمن الناس فى أيامه واطمأنوا، ورخيت الأحوال فى كل بلاده. ويرجع هذا النجاح فى أساسه إلى اهتمام على بن يوسف بالدفاع عن حوزة بلاده وتصديه فى شجاعة كبيرة لمحاربة النصارى فى الأندلس، وإلى ميادين الحرب فى الأندلس أرسل على بن يوسف خيرة رجاله وقواده، وقد استشهد منهم فى ميدان الشرف كثيرون، وإذا كان أبوه قد كسب موقعة الزلاقة فقد كسب هو معارك أقلش وإفراغة الأولى سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م والثانية سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م، وفى هذه المعركة الأخيرة لقى ألفونسو المحارب ملك أرغون Alfonso el Batallador rey de Aragon مصرعه بعد أن طال حكمه وكثر أذاه للمسلمين.

أما الهزائم التى منى بها المرابطون فى الأندلس فلا ترجع إلى ما يقال من أنهم ضعفوا ولانوا بتأثير الحضارة الأندلسية، فهذا غير صحيح، لأنهم ظلوا يحاربون بالشجاعة نفسها والإخلاص إلى نهاية أيامهم فى الأندلس.

ولكن سبب الهزائم هو أن الميدان كان شاسعاً ومدة الحرب طويلة، فمنذ أن عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس أول مرة فى جمادى الأولى سنة ٤٧٩هـ/ يوليو ١٠٨٦م إلى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م كان هؤلاء المرابطون فى معركة واحدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متصلة مع ثلاث ممالك نصرانية شابة قوية هى مملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون وكونتية قطالونية بالإضافة إلى إمارة البرتغال التى كان ساعدها يشتد سنة بعد أخرى. وخلف هؤلاء جميعاً تقف البابوية تحرض الأوروبيين على مواصلة الحرب الصليبية فى الأندلس. طوال هذه الحقبة كلها- أى نحو ستين سنة - ظل المرابطون فى ميدان الشرف لا يتأخرون عن مناجزة العدو والتصدى له فى أى ميدان. فإذا كانوا قد انهزموا فى بعض المواقع مثل كتندة Cutanda سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م فذلك طبيعى، فالحرب سجال، وقد وفق هؤلاء البواسل المخلصون إلى كسب انتصارات كبرى أوقفت التقدم النصرانى وملأت قلوب ملوك النصارى خوفاً واحتراماً لهم. والمهم أنهم بذلوا أقصى ما استطاعوا فى التصدى للخطر النصرانى وأوقفوه فعلاً.

وينبغى أن نلاحظ أن المرابطين لم يجدوا من رؤساء الأندلس إلا أقل العون، بل نجدهم فى أحيان كثيرة يعادونهم معاداة صريحة، والكثيرون منهم تعاونوا مع العدو النصرانى على إخوانهم المسلمين، وقد عانى المرابطون من ذلك كثيراً، واضطروا فى معظم الأحيان إلى خوض المعارك وحدهم، دون أى معاونة من أولئك الرؤساء، ولنذكر هنا أن عامة أهل الأندلس كانوا يميلون إلى المرابطين ولكنهم كانوا عاجزين عن أن يقوموا بعمل حاسم، نظراً لما طبع عليه رؤساؤهم من التشبث بالرياسة فى نواحيهم ولو على حساب الإسلام. وفى تلك العصور كانت جماهير الشعوب عاجزة عن القيام بعمل حاسم فى أى بلد من البلاد، وكان الأمر كله دائماً بيد القادة والروساء والأغنياء والعلماء ومن إليهم، ولا بد أن ننبه إلى أن العلماء وأهل الفقه كانوا دائماً مع المرابطين، وقد منحهم هؤلاء سلطاناً واسعاً فأساء الكثيرون من الفقهاء استعماله وأثاروا على أنفسهم وعلى المرابطين نقداً شديداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أى حال قضى على بن يوسف حياته موزعاً بين المغرب والأندلس ولكن هذا البلد الأخير استنفد معظم جهده، فقد عبر إليه أربع مرات، وكان فى كل مرة يقود الجيوش ويرسل البعوث لسد ثغور الأندلس. ولو تعاون معه أهل الأندلس فى شىء من الإخلاص لاستطاع إنقاذه من الضياع نهائياً.

توفى على بن يوسف سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م فانتهت بوفاته فترة طويلة من الرخاء واستقرار الأحوال فى الأندلس والمغرب، وكان قد تلقب مثل أبيه بقلب أمير المسلمين ودخل فى طاعة الخليفة العباسى وحصل منه على تفويض بالحكم فى بلاده على عادة المستبدين فى النواحى فى الشرق والغرب فى ذلك العصر كله.

تقدير أعمال المرابطين فى الأندلس :

ولكى نأخذ فكرة واضحة عن القوة التى كان على المرابطين مواجهتها فى الأندلس ومدى الخطر الذى كان الإسلام يتعرض له فى تلك البلاد نتتبع فى إيجاز كيف تطور الصراع فى شبة الجزيرة من حرب تقليدية على الحدود بين الأندلس الإسلامى الموحد وإمارات النصارى فى شمال شبه الجزيرة إلى صراع على مصير شبه الجزيرة كله بين أندلس إسلامى ممزق وإمارات نصرانية أحست بضعف المسلمين وتفرق أمرهم وسهولة الاستيلاء على بلادهم فدبت فى كيانها قوة جديدة وشرهت نفوس ملوكها وأمرائها إلى الفوز من أرض الإسلام بأوفر نصيب.

ذلك أن قيام الثورة على العامريين وسقوطهم فى قرطبة كشف عن حقيقة ضعف المسلمين فى الأندلس وحاجتهم إلى جمع صفوفهم تحت قيادة قوية تعيد إليهم الهيبة التى كانت لهم أيام الخلافة الأموية. فقد تصرف المتنازعون على السلطان فى قرطبة ما بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدعياد الخلافة من بنى أمية وغيرهم تصرفاً طائشاً بعيداً عن كل تعقل أو إدراك لخطورة أوضاع المسلمين فى الأندلس، فأسرعوا واحداً بعد الآخر يستعينون بفرق من الإمارات النصرانية يدفعون لهم الأجر الجزيل ويتنازلون عن الأراضى الإسلامية، وظل الحال على ذلك حتى سنة ١٠٣١ميلادية عندما ألغى أهل قرطبة الخلافة الأموية فضاع رمز الوحدة وانفرط العقد وتحولت ولايات النواحى إلى إمارات مستقلة هى التى نسميها بممالك الطوائف.

ولم تكن ممالك النصرانية وإماراتها إلى ذاك الحين إلا دويلات صغيرة قليلة الأراضى ضئيلة الموارد، فكانت حدود مملكة ليون تقف فى منتصف المسافة بين حوض المنينو والدويرو، ونشأت خلال النصف الثانى من القرن العاشر كونتية قشتالة فاقتطعت لنفسها أجزاء من أراضى مملكة ليون وأخرى من مملكة أرغون وامتدت فى الأرض الفراغ شمالى الثغر الأوسط الأندلسى وقاعدته مدينة سالم. وجازت أرضاً واسعة تمتد من ساحل بسكاية عند مدينة سانتيانا Santillana de Mar إلى شمال مجريط. أما مملكة نبرة Navarra فكانت إمارة صغيرة تقتصر على ما يعرف الآن ببلاد البشكونس Las Vascongodos، وتليها إلى الشرق إمارات صغيرة فى جبال ألبرت وسفوحها الجنوبية هى أرغون Arogon وشبرب Soborbe وقاعدتها آينسا Ainsa وريباجورثا Ribagorza وقاعدتها وعاصمتها جاقة Jaca وفيها تقع مدينة رودا أو روطة Roda . ثم كونتية قطلونة Condados Catalanes وقاعدتها برشلونة وكانت حدودها تقف شمالى غربى طركونه Tarragona ولاردة Lerida وطرطوشة Tortosa . ولم يكن فى هذه الإمارات والممالك النصرانية كلها إلا مدينة واحدة جديرة بهذا الاسم هى بنبلونة Panplona قاعدة أرغون.

وعندما استبان لهذه الممالك النصرانية كلها ضعف المسلمين جرؤت على العدوان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أراضيهم، وكان أول من بدأ ذلك غرسية دى نافرا Garcia de Najera ملك أرغون (١٠٣٥- ١٠٥٤م) فتقدم فى سنة ١٠٤٥م واستولى على قلعة قلهرة Calaharra على المجرى الأوسط لنهر إبرو Ebro وعقب ذلك وعندما تبين للنصارى أن المسلمين عاجزون عن الدفاع عن بلادهم قام ملك ليون وقشتالة فرناندو الأول (١٠٣٧- ١٠٦٥م) بالاستيلاء على لاميجو Lamego وبازو Visioمن بلاد الثغر الأدنى فى غربى الأندلس (سنة ١٠٥٧م) وكلتاهما اليوم فى البرتغال. ثم استولى على جواردا Guarda وقلمرية Co-imbra فى البرتغال أيضاً، وكان هذان الملكان أخوين، فهما ابنا شانجه الكبير Sancho el Mayor وهو أعظم من تولى عرش نبرة على مدى تاريخها (١٠٠٤- ١٠٣٥م) وكان هذا الرجل عندما بدأت الفتنة الأندلسية يرى نفسه وارث السيادة على شبة الجزيرة بعد انتثار أمر الخلافة وكان قد تمكن من ضم أرغون وشبرب وريباجورثا إلى أرض نبرة (وقاعدتها بنبلونة) ثم ضم إلى بلاده كونتية قشتالة ودخل فى طاعته برمودو الثالث ملك ليون، ودان له بالولاء كونت برشلونة بيرنجير رامون الأول Berenguer Roman I الملقب بالمحنى El Curvo وقبل وفاته قسم بلاده بين أولاده وجعل أكبرهم Garcia de Najera قيماً عليهم وحاملاً للقب الملك، ولكن أخاه فرناندو احتل ليون سنة ١٠٣٢م وأعلن نفسه ملكاً عليها، وأعلن أخوه غير الشرعى راميرو الأول نفسه ملكاً على أرغون فضاعت وحدة بلاده وتلاشى الخطر على بلاد الإسلام من ناحيته.

وقد ذكرنا كيف استولى غرسية دى نافرا على بعض بلاد الأطراف الإسلامية وكيف استولى فرناندو الأول على بلاد أخرى. وعندما مات فرناندو الأول ملك ليون وخلفه ابناه سانشو الثانى ثم ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون تمكن هذا الأخير من الاستيلاء على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طليطلة سنة ١٠٨٥م على ما ذكرناه، فانقلب ميزان القوى فى شبه الجزيرة، وأصبحت مملكة قشتالة وليون أكبر قوة سياسية عسكرية فى شبه الجزيرة، وتجرد ملكها للاستيلاء على بقية بلاد الإسلام، وتخاذل أمامه ملوك الطوائف حتى تداركهم يوسف بن تاشفين ورجاله من المرابطين المجاهدين. ولكن يوسف وصل بعد ضياع طليطلة واستفحال الداء، وكان ألفونسو السادس قد استولى كذلك على قورية Coria من المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس (١٠٧٩م). وبعد سقوط طليطلة استولى ألفونسو السادس على طلبيرة Talavera ومجريط ووادى الحجارة Guadalajara وهيتا Hita وقنسوجرة Consuegra وأقلش Ucles وقونكة Cuenco وأتينشه Atienza وأريخا Arija ، وأصبحت بلاد وادى الأبرو وما عرف فيما بعد بقشتالة الجديدة من مثل سلمنقة وأبلة Avila وشقوبية Sagovia وسورية Soria قواعد نصرانية بعد أن كانت معاقل إسلامية. وفى الوقت نفسه سقطت فى يد ذلك الملك النصرانى معظم قواعد ما عرف بالثغر الأدنى الإسلامى، أى الجزء الشمالى من البرتغال الحالية وفيه قواعد برتغال Portuscalle وشنترين Santaren وشنترة Cintra والأشبونة Lisboa (سنة ١٠٩٣م).

وفى الوقت نفسه استولت مملكة أرغون على بربشترو Barbastro وأنزل رجالها مذبحة كبرى بأهلها. وقد دعت البابوية إلى مهاجمة بربشترو واشترك فى الحملة عليها فرسان من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، واعتبر الهجوم على هذا البلد الإسلامى الصغير بداية للصليبيات فى الأندلس وذلك بإعلان من البابا إسكندر الثانى. ثم تمكنت مملكة أرغون الصغيرة من الاستيلاء على قواعد الثغر الأعلى الشمالية فى حوض نهرى جلق Gallego والسينكا Cinca وسقطت قواعد أرجيداس Arguedas (١٠٨٤م) وأيربه Ayerbe ومنشون Manzon

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١٠٨٩م) وطركونة Tarragona (حوالى ١٠٩٥م). وفى سنة ١٠٩٦م سقطت وشقة Huesca فى يد بدرو الأول ملك أرغون بعد معركة الكزار Alcazar التى انتصر فيها على المستعين بن هودن، وتحول الصراع بين الإسلام والنصرانية إلى حرب صليبية فعلية حمل أصحابها الصليب وأصبحت صيحة الحرب: هذا ما يشاء الله Deus Le Volt.

وهكذا تدهورت جبهة الإسلام فى الأندلس فى كل نواحيها، وخاصة بعد أن استولى السيد القمبيطور على بلنسية وعاث فى شرقى الأندلس كله فساداً.

كان على المرابطين أن يواجهوا كل ممالك النصرانية فى آن واحد: كونتية قطلونية ثم مملكة أرغون ثم مملكة قشتالة وليون وعلى رأس كل منها ملك قوى طامح طامع، جرىء على المسلمين وأراضيهم. كل ذلك وملوك الطوائف فى لهو وعبث، وحرب فيما بين بعضهم البعض، وعندما دخل المرابطون تكشف ملوك الطوائف عن أعداء حقيقيين للإسلام وأهله. وكان على يوسف بن تاشفين أن يخلعهم جميعاً ويواجه بقواته كل ممالك النصرانية من شرق الجزيرة إلى غربها، وتابع هذا الجهاد ابنه على بن يوسف. وخسر المرابطون فى ذلك الصراع الرهيب خيرة رجالهم وفرسانهم. وقد دفعوا فى ذلك ثمناً باهظاً، ولكنهم استطاعوا فى النهاية كسر الموجة الصليبية واحتفظوا للإسلام بما بقى له فى شبه الجزيرة على طول خط الوادى الكبير واستمراره إلى بلنسية فى الشرق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاشفين بن على ٥٣٣ - ٥٣٩ هـ/ ١١٣٨ - ١١٤٤م
ونهاية دولة المرابطين فى المغرب والأندلس :

وبينما كان على بن يوسف يواصل جهوده فى المغرب والأندلس بدأ محمد بن تومرت المعروف بمهدى الموحدين دعايته ضد المرابطين، واجتهد فى تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين والتجسيم وما إلى ذلك، وقد نجحت دعوته لأنه توجه بها إلى فريق آخر من البرانس كانوا يتشوقون بدورهم إلى إنشاء دولة لهم تضاهى ما وصلت إليه قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من المجموعة الصنهاجية المرابطية من العز والملك والسلطان، ولهذا فإن نجاح محمد بن تومرت لا يمكن أن يعزى إلى صدقه فى الاتهامات التى وجهها إلى المرابطين بل إلى ذكائه فى معرفة اللغة التى يخاطب بها المصامدة ويجتذبهم إلى دعوته، وسنتحدث عن ذلك فى كلامنا عن الموحدين.

ويهمنا الآن أن نقول: إن على بن يوسف خلّف هذا الملك العريض والحافل بالمشكلات والمصاعب فى الوقت نفسه لابنه تاشفين، وكان شاباً حسن الاستعداد ولكن الظروف التى تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذى تجربة أوسع، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية فى العنف والقسوة والبعد عن الأخلاق فى محاربة المرابطين معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم. ثم إنه قام بدعوته ضد المرابطين فى المغرب فى وقت كان الجانب الأكبر من قوامهم مشغولاً خلاله بالجهاد فى الأندلس، هذا إلى أن ذلك الجهاد كان قد استنزف جانباً عظيماً من قوى المرابطين، وفى ميادينه هلك عدد عظيم من أنجادهم ومقاتليهم.

وبدلاً من أن تتاح الفرصة للمرابطين لمواجهة كل هذه القوى الطامعة فى ما بقى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للإسلام من أرض فى الأندلس، نجد أن دعوة محمد بن تومرت تضطرهم إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين فى المغرب دفاعًا عن كيانهم، وبهذا حرم الأندلس من جهودهم فيه. ومن أغرب ما حدث إذ ذاك قيام نفر من زعماء أهل الأندلس على المرابطين غير ناظرين إلى ما لا بد أن يصيب بلادهم من الضياع إذا غاب عنها المرابطون، وقد تصور بعضهم أنهم يستطيعون أن يكونوا ملوك طوائف بدورهم؛ فانقلبوا على المرابطين وأعلنوا الدخول فى الدعوة الموحدية فلم تنفعهم ثوراتهم وأسرعوا ببلادهم إلى الزوال.

وبقية تاريخ المرابطين فى المغرب داخلة فى الصراع الذى نشب بينهم وبين الموحدين، وسنقصه بتفصيل. وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن الموحدين نقف هنيهة ندرس فيها أعمال المرابطين فى الغرب الإسلامى إلى نهاية حكم على بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م.

تقدير المرابطين ودورهم فى تاريخ الغرب الإسلامى :

كان ينبغى أن نمضى مع حديث المرابطين إلى نهاية دولتهم السياسية، ولكن هذه النهاية كما قلنا لا تفهم على وجهها الصحيح إلا إذا وضعت فى إطار الصراع مع الموحدين، ولهذا فلن نقف الآن الوقفة الطويلة الواجبة عند هذه الدولة الباسلة المجاهدة التى لم يدم تاريخها أكثر من القرن إلا قليلاً، ومع ذلك فإن ما قامت به من الأعمال يجعلها بحق فى طليعة دول الإسلام ضخامة عمل وبعد أثر، فهذه الدولة التى ولدت فى إفريقية المدارية على الحدود الجنوبية للعالم الإسلامى، ثم قامت بعبئها وأقامتها جماعة قليلة نسبياً من أفراد القبائل الصنهاجية الصحراوية استطاعت أن توحد المغرب الأقصى الإسلامى والأندلس وبعض المغرب الأوسط تحت لواء دولة واحدة وكسرت شوكة الجماعات المنحرفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن الإسلام فى بلاد الريف ريف تامسنا وأعادت هذه النواحى وأهلها إلى رحاب الإسلام السنى القويم، وعمرت سهل مراكش وأقامت فيه مدينة من أجمل مدائن الإسلام وهى مراكش، واضطلعت فى الأندلس بعبء ثقيل كلفها دماء الألوف بعد الألوف من أبنائها حتى استطاعت أن تنقذ الإسلام الأندلسى من الزوال. ولقد حارب رجالها كل رجال الممالك النصرانية فى الأندلس من قطلونية إلى أرغون إلى قشتالة وليون والبرتغال بنجاح كبير إلى حد بعيد، وعلى الرغم من أن الأندلسيين لم يقفوا إلى جانب أولئك المجاهدين وتخوفوهم فى أكثر من مناسبة، فإن المرابطين تمكنوا من أن يؤدوا واجبهم على وجه يدعو إلى الإعجاب حقاً.

ومن ناحية أخرى فقد قام الفرع الجنوبى من المرابطين بقيادة أبى بكر بن عمر ومن جاء بعده بدور لا يقل أهمية فى خدمة الإسلام والحضارة فى إفريقية المدارية والاستوائية عما قام به أبناء عمومتهم فى المغرب والأندلس، فإن قوات المجاهدين المرابطين تمكنت، كما رأينا، من إدخال دولة غانة وأهلها فى الإسلام، وفتحت بذلك طريق الغرب الإفريقى واسعاً أمام الإسلام لينتشر فى إفريقية، وكان دخولهم هناك هو البداية التى فتحت الطريق أمام الإفريقيين المداريين ليقيموا دولاً إسلامية أكبر من دولة غانة.

يوسف بن تاشفين ومكانته التاريخية :

ولا شك فى أن يوسف بن تاشفين يعتبر من أعاظم قادة الإسلام فى كل العصور، وقد كان رجلا كامل العقل بعيد الذكاء هادئ الطبع عميق الإسلام، وقد تمكن بصفاته وفضائله من أن يقيم هذه الدولة ويمحو من المغرب الأقصى آثار الزندقة والانحراف، ثم لبى داعى الجهاد فى الأندلس دون تردد. وكان الإيمان بالإسلام هو مفتاح هذه الشخصية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفريدة فى بابها، فقد نهض بالإسلام وللإسلام عاش عمره كله، ويكفى أن نذكر أنه عبر إلى الأندلس أربع مرات ليواصل المعركة مع أعداء الإسلام غير هياب، ولم يكسب الرجل من الأندلس شيئاً لأنه كان لا يغل مالاً ولا يتيح الفرصة لمتاع فى ذلك الوقت، إنما كان أرض تضحية بالمال والدماء ولا زيادة. ولقد تبطر عليه الأندلسيون وأساءوا إليه، ويكفى أن نذكر ما كان الأندلسيون يرمون المرابطين به من سوء القالة والاتهام، حتى لقد كان شعراؤهم ـ على سطحية شعرهم ـ يتحدثون عن المرابطين وكأنهم يتحدثون عن شعب أقل منهم قدراً وحضارة، وكان يوسف بن تاشفين يسمع شتمه بأذنه ويرى من تفاهات أولئك الجاحدين الشيء الكثير، ومع ذلك فما ضجر مرة ولا عاقب أحداً بمقولة قالها.

وقد كان عند ذلك الرجل تصور صحيح لما ينبغى أن تكون عليه أحوال المغرب الأقصى حتى يستقيم أمره ويكتمل نموه ونضجه وتظهر شخصيته وقدرات أهله، فعمد إلى توحيده، وضم إلى صنهاجة رجال مصمودة وأخرج هؤلاء من ظلم زناتة وعسفهم وأشركهم معه فى جيوش الدولة وأعمالها، وعبر ممر تازا وضم تلمسان وكانت دارا لقبائل كثيرة زنانية، فأدخلها دولته واستعمل رجالها وساواهم بالصنهاجيين، فكأنه بذلك قام بالخطوة الأولى لتكوين شعب المغرب الموحد، وواصل سيره حتى مدينة الجزائر. ولولا أن صريخ الأندلس أتاه واضطره إلى أن يمضى إليه وينفق فيه ما بقى له من عمر ومال.. لولا ذلك لكان ليوسف بن تاشفين فى المغرب شأن أكبر بكثير مما كان له بالفعل.

ولقد كان الرجل من صميم إفريقية، فإن قبائل صنهاجة الصحراء كانوا بربراً عبروا الصحراء الكبرى وامتدوا إلى الجنوب واختلطوا بأهل إفريقية الغربية المدارية فصاروا منهم، ومن هنا يصدق القول بأن الصنهاجيين الصحراويين كانوا مغاربة بقدر ما كانوا أفارقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مداريين. وكان يوسف بن تاشفين شديد السمرة أقرب إلى السواد منه إلى سمرة أهل جنوبى المغرب، وهو من هذه الناحية يبدو لنا أول إفريقى من جنوب الحزام الصحراوى يحتل مكانة بين قادة الأمم وصناع التاريخ فى إفريقية وأوروبا كذلك. والدور الذى قام به يوسف بن تاشفين فى تاريخ الغرب الأوروبى كبير وبعيد المدى، وقد أحست به أوروبا والمسيحية جميعاً، فقد كسر موجة الزحف الصليبى كسراً عميقاً، ثم جاء ابنه على ورجاله فأحدثوا فى الجبهة الصليبية شدوخاً أخرى وبددوا أحلام الطامعين فى أرض الأندلس إلى حين. والفضل فى ذلك كله يرجع إلى يوسف بن تاشفين الذى ثبت جبهة الإسلام والأندلس، وأوقف عدوان إسبانيا النصرانية عليه، وأتاح له أكثر من أربعة قرون من التاريخ والحضارة.

وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى كان يوسف بن تاشفين شغل البابوية وأهل الغرب الأوروبى الشاغل، وحتى أيامنا هذه أنفق رجل من أعلم أهل إسبانيا هو منندذ بيدال جانباً كبيراً من عمره ليقلل مما فعله المرابطون، فألف كتاباً عن عصر المرابطين فى الأندلس سماه «إسبانيا فى عصر السيد» فنسب العصر كله إلى رجل من أهل الحرابة اقترف أبشع الأعمال فى حق المسلمين، وهبط منندذ بيدال فى كتابه هذا بالمرابطين إلى دركات الهمج، وإلى المرابطين يرجع الفضل فى نجاة الأندلس مما كان يمكن أن يفعل به أمراء وملوك أقوياء من أمثال ملك أرغون وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون. لقد لقيت جيوش المرابطين جيوش هذه الدول كلها مرة بعد مرة، وكسبت انتصارات كبرى وخسرت معارك أخرى، ولكنها أوقفت هؤلاء الملوك الطامعين كما يقول مؤرخونا.

وقد حارب المرابطون كذلك عتاة فرسان إسبانيا النصرانية الذين طار ذكرهم كل مطار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أمثال رودريجو دياث دى فيفار Rodrigo Diaz de Vivar الملقب بالسيد القمبيطور El Cid Compeador والبرهانيث Alver Hanez وغرسيه أوردونييث Garcia Ordonez وفلوا غربهم وأوقفوا أطماعهم فى بلاد المسلمين. وكان كل منهم يطمع فى أن يقتطع لنفسه دولة من أراضى المسلمين كما فعل السيد القمبيطور فى بلنسية فترة قصيرة من الزمن.

ثم إن يوسف بن تاشفين كان رجلاً متواضعاً بسيطاً فى كل شىء، ولقد دخل الأندلس فوجد فيه رجالاً صغاراً أنشأ كل منهم لنفسه بلاطاً وزعم أنه أمير وعاش فى ترف لا مزيد عليه، ومضى يقترف من الجنايات فى حق الناس والوطن الأندلسى ما يثير النفوس، فما تأثر الرجل بشىء من ذلك الفساد، ولا مالت نفسه إلى الإصابة من ذلك المتاع الرخيص الذى كانوا يغرقون أنفسهم فيه، وهو عندما عزل ملوك الأندلس عزلهم دون إساءة، وقد قرر ذلك الأمير عبد الله الزيرى أمير غرناطة فى مذكراته، ولم يقتل منهم إلا صاحب بطليوس الملقب بالمتوكل وكان شديد الجرأة على حقوق قومه ودينه، ومع ذلك فليس لدينا ما يدل على أن ذلك كان عن أمر يوسف بن تاشفين.

وليس من مذهبنا فى التاريخ أن نستشهد بأقوال الشعراء، ولكن الأبيات التالية من قصيدة للشاعر محمد بن سوار الأشبونى تجمع عن حق خلال يوسف بن تاشفين وتحسن تقديره دون مبالغة وتغنينا عن كلام كثير:

اسمع أميرَ المؤمنين وناصر الـ ـدين الذى بنفوسنا نفديه

جوزيت خيراً عن رعيتك التى لم ترض فيها غير ما يرضيه

أما مساعيك الكرام فإنها خرجت عن التكييف والتشبيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى كل عـام غـزوة مـبـرورة ... تردى عـــديد الروم أو تفنيـــه
تصل الجهاد إلى الجهاد موفقاً ... حكم القضاء بكل ما تقضيه[1]
مـتـواضـعـاً لله تظهـر دينه ... فى كل مـا تبـديه أو تخـفـيـه
ولقد ملكت بحقك الدنيا وكم ... ملك الملوك الأمر بالتمويه[2]

على بن يوسف بن تاشفين وموا صلة الجهاد فى الأندلس :

لم يظلم المؤرخون المحدثون حاكماً مسلماً كما ظلموا على بن يوسف بن تاشفين، ومرجع الظلم إلى الدعاية المشينة التى شنها على المرابطين محمد بن تومرت، كما سنرى.

وهناك عبادة غير موفقة قالها عبد الواحد المراكشى فى «المعجب» كان لها أثر بعيد فى تشويه صورة المرابطين فى كتب التاريخ الحديثة خصوصاً، ثم كانت هناك حملة شعراء الأندلس وكتابه على المرابطين عموماً. فأما عبارة عبد الواحد المراكشى فهى:

«واختلت حال أمير المسلمين، رحمه الله، بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح، كل منهم يصرح بأنه خير من أمير المسلمين وأحق منه، واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، واحتوت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة على كل مفسد وشرير، وقاطع طريق وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين فى

(١) الأصل «حتم القضاء» وأظن أن قراءتنا أصح.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب ٤ – ٤٧. وقد وردت الأبيات نفسها فى الذخيرة لابن بسام، القسم الثانى ٢٤١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك كله يزيد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين وما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاختل عليه لذلك كثير من بلاد الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول، ولا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس[1].

وقد نقل المستشرق راينهارت بيتر ـ آن دوزى هذه العبارة وهلل بها، وتناقلها عنه الناس، واعتمد عليها هذا الرجل فى الحملة على المرابطين حملة هى أبعد ما يكون عن الإنصاف. أما عبد الواحد المراكشى فمؤرخ موحدى، وهو واحد من هؤلاء الذين اشتركوا فى تشويه سمعة المرابطين، وعبارته ليس فيها شيء من حقيقة تاريخية يعول عليها كما رأينا، وأما دوزى فكان مستشرقاً مفكراً من أواخر القرن التاسع عشر، من الذين يسمون باللبراليين ممن كانوا يحملون على رجال الدين ويسهمون فى الحركة المعادية لهم المسماة باسم anti- clericalisme فكان يكن للمرابطين جزءاً من بغضه لرجال الدين عامة، ثم إنه كان شديد الإعجاب بالمعتمد بن عباد ومعاصريه من الشعراء، حتى لقد خصص لهم الجزء الثالث من تاريخه المشهور المسمى تاريخ مسلمى الأندلس فى طبعته الثانية، ومن هنا فقد ساءه ما فعله يوسف بن تاشفين بالمعتمد وغيره من ملوك الطوائف، فزاد ذلك فى حملته على المرابطين. أضف إلى ذلك أنه كان أوروبياً يكتب فى صميم عصر الاستعمار عن إفريقيين مسلمين انتصروا على أوروبيين نصارى مرة بعد أخرى، ولم تكن العقلية الأوروبية تقبل ذلك فى ذلك العصر، فأبغض دوزى ومعاصروه المرابطين بغضاً شديداً، وقد أخذ عن دوزى هذه الكراهة للمرابطين المؤرخون الإسبان، وخاصة رامون منندذ

(١) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة ١٩٦٢ص ٢٤١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيدال الذى كان بحق من أكبر علماء الإسبان باللغويات مع مشاركة فى التاريخ، ولقد ألصق هذا الرجل بالمرابطين فى كتابه «إسبانيا فى عصر السيد» كل نقيصة، وبلغ به الأمر أن اجتهد فى تسويغ ما فعله السيد القمبيطور بأهل بلنسية من بشاعات لعل أقلها إحراقه قاضيها أبا جعفر أحمد بن جحاف حياً، ثم سار فى الطريق نفسه المستشرق الإسبانى إميليو غرسيه غرمس فأدار خطابه الذى دخل به الأكاديمية الإسبانية للغة على ما سماه «كسوف الشعر فى إشبيلية» وهى مقالة فيها علم كثير ولكن فيها كذلك بغض شديد وتحامل بالغ.

ولكن هذه الآراء لا تغير الحقيقة، فقد مضى إلى غير رجعة العصر الذى كنا فيه نأخذ آراء المستشرقين فى تاريخنا وقضايانا مأخذ الجد وننفق الوقت والجهد فى تفنيدها والرد عليها، وأولى بنا اليوم أن نتولى نحن كتابة تاريخنا ونفسره على أساس ما يقضى به الحق والعلم، والحق والعلم هنا كانا على عكس ذلك تماماً. فإن على بن يوسف بن تاشفين كان إماماً عادلاً ذكياً تقياً قائماً بشؤون دولته ورعاياه حق القيام، وكان اهتمامه بالأندلس عظيما لأنه كان جبهة إسلامية مهددة بالانهيار.

وقد ظل الرجل حياته كلها أميراً مطاعاً مهاباً من المرابطين والأندلسيين كباراً وصغاراً. وأما ما ذكره عبد الواحد المراكشى عن علو سلطان النساء فى دولة على بن يوسف واشتمال كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة على كل مفسد وشرير وقاطع طريق وصاحب خمر وماخور فأمر لا يقوم عليه من واقع التاريخ أدنى دليل، وهو ليس حكم مؤرخ أو صاحب فكر، وإنما هو كلام سوقى رخيص لا ندرى كيف انحدر إليه عبد الواحد المراكشى وهو، فى ما علمنا، شيخ وقور على شىء من العلم والأدب لا بأس به.

والحقيقة أن المرأة كانت تستمتع فى مجتمع صنهاجة الصحراء بحرية واسعة فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدود الإسلام، فكانت تتحمل مسؤولياتها وتشير على زوجها بما تراه فى ما يتعلق بشؤون الأسرة وعمل الزوج، كما رأينا فى ما ذكرناه من سيرة زينب بنت إسحاق النفزاوية، وهذا أمر فى ما يبدو، لا يعرفه الأندلسيون من أمثال عبد الواحد المراكشى، واعتبروه دليل فساد، وقد كبر عليهم أن يروا للمرأة هذه المكانة فى ذلك المجتمع الإفريقى الذى كانوا يرون أنه أدنى من مجتمعهم فلم يفهموا هذا المجتمع البسيط الذى كان فى الحقيقة أفضل من مجتمعهم الأندلسى الذى كان يشكو أدواء وأمراضاً لا حصر لها لأنه كان أقرب إلى الفطرة عن دواعى الفساد.

ثم إن رجال المرابطين كان الواحد منهم يتزوج أكثر من واحدة شأنهم فى ذلك شأن الناس فى عالم الإسلام فى العصور الماضية خاصة، وكانوا يميزون أولادهم بنسبتهم إلى أمهاتهم، وخاصة إذا تشابهت الأسماء فيقولون محمد ابن الصحراوية ومحمد ابن الغانية ومحمد ابن عائشة، فرأى الأندلسيون أن فى ذلك سيادة المرأة على الرجل فى المجتمع الصنهاجى الصحراوى، وتلك نظرة سطحية إلى الأمور.

وبقى أن نقول إن على بن يوسف بن تاشفين كان أميراً واسع العلم مهذب الحواشى، نشأ وتربى فى إشبيلية، وقبس من الأندلسيين نظرية الحضارة دون إسراف، فكان يعجب بأمثال أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان، وأبى بكر بن القيطورته وأبى بكر بن القصيرة وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون، وغيرهم من أئمة النثر العربى فى الأندلس فى ذلك العصر، ورغم إكرامه لهؤلاء الكتاب فإنهم كانوا ينطوون على غرور فارغ وأنانية وفساد طبع، وقد حدث ذات مرة أن طلب على بن يوسف من أبى مروان بن أبى الخصال أن يكتب عنه خطاباً يستحث فيه جند مرسية على الثبات للعدو، فانتهزها فرصة للتعبير عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كامن حقده على المرابطين، وكتب خطاباً مقذعاً أساء فيه إلى المرابطين كافة، بل أغضب به على بن يوسف بن تاشفين إذ بدأه بقوله: «أى بنى اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلامَ يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد؟ قلبتم بارتباط الخيول أتانا لها حالب قاعد، لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقاباً، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم».. إلى آخر هذا الخطاب المقذع الذى عثرنا على نصه الكامل ونشرناه فى ما نشرنا من وثائق مرابطية.

وقد طرب أدباء الأندلس طرباً عظيماً لما أودعه أبو مروان بن أبى الخصال فى هذه الرسالة من إقذاع فى شتم المرابطين، وقال عبد الواحد المراكشى: «وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها، أحسن فيها ما شاء، منعنى من إيرادها ما فيها من الطول[1]».

ومع هذا الإفحاش فإن على بن يوسف لم يزد على أن عزله عن الكتابة، قال عبد الواحد المراكشى: «فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبى عبد الله أخيه: كنا فى شك من بغض أبى مروان المرابطين والآن قد صح عندنا، فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه، فأعفاه، ورجع إلى قرطبة بعد أن مات أبو مروان أخوه بمراكش، وبقى هو بقرطبة إلى أن استشهد فى داره رحمه الله أول الفتنة الكائنة على المرابطين[2]».

بلاء المرابطين فى الجهاد:

وكان على بن يوسف بن تاشفين الذى يقول فيه عبد الواحد المراكشى: «إن تغافله تزايد وضعفه أخذ يقوى حتى قنع بإمرة المسلمين وبما يرفع إليه من الخراج» من أنشط

(١) عبد الواحد المراكشى، المعجب ص ٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٠- ٢٤١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمراء المسلمين فى الجهاد والحفاظ على ما بقى للمسلمين فى الأندلس، بل إنه حاول أكثر من مرة أن يستعيد طليطلة: المرة الأولى كانت عقب توليه الأمر، فما كادت البيعة تتم له حتى تحرك من حضرة مراكش مع جيوش المرابطين والمصمودين والجنود والحشود، وعبر إلى الأندلس ونزل إشبيلية أوائل ٥٠١هـ/ صيف ١١٠٧م ثم عين أخاه أبا الطاهر تميماً على غرناطة وولى أبا عبد الله محمد بن أبى بكر اللمتونى على قرطبة.

وبعد ذلك بشهر (شعبان ٥٠١هـ/ مارس ١١٠٨م) خرج أبو الطاهر تميم فى جيش مرابطى كبير، ووجهته طليطلة، وقد تجمع عسكره فى جيان ثم نهض بمن معه وحاصر حصن أقليش Ucles فى قلب إقليم طليطلة، وأسرع ألفونسو السادس ملك طليطلة فأعد جيشاً ضخماً جعل فيه خيرة قواده حتى سميت الموقعة التى خاضوها مع المرابطين بمعركة الأكناد السبعة La Batalla de los siete Condes وجعل معهم ابنه الوحيد شانجه أو سانشو، وقد أحرز أبو الطاهر تميم نصراً مؤزراً فى اللقاء، وقتل فى المعركة شانجه ولى العهد ونفر من القادة، وقد هاضت هذه الهزيمة نفس ألفونسو السادس الذى طالما فعل بالمسلمين الأفاعيل فلم يلبث أن توفى(١).

وألفونسو السادس هذا كان هو الذى انتزع طليطلة من أيدى بنى ذى النون سنة ١٠٨٥م، وهو حادث فاصل فى تاريخ الأندلس الإسلامى؛ إذ إنه الحادث الذى تضعضعت نتيجة له قوة الإسلام فى الأندلس، فبعد استيلاء ملك قشتالة وليون على طليطلة تزعزع سلطان المسلمين فى شبه الجزيرة بصورة حاسمة، فلم يستطيعوا العودة إلى ما كانوا عليه قبل ذلك أبدا.

(١) انظر النص الخاص بهذه المعركة فى مقالنا: وثائق مرابطية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثانى عشر، ١٩٥٤م ص ٥٥ – ٨٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م سار على بن يوسف بنفسه على رأس جيشه غازياً إقليم طليطلة فأسرع رجال قشتالة وليون للقائه وتحصنوا فى طلبيرة Talavera غربى طليطلة «فنزل عليها ـ يريد على بن يوسف ـ ثم دخلها، ووقع النهب والسبى فيها، واعتصم الروم فى قصبتها وأجارهم الليل، فرموا بأنفسهم فى النهر، وتسربوا بين المحلات فأفلتوا، وامتلأت أيدى المسلمين من السقط والثياب والماشية والأسلحة، وطهر الجامع ورد إلى الهيئة المسلمة، ورجع به حرامه وإقامة الصلوات ومحا الله منه الكفر[1]».

هذا بعض ما فعله هذا الرجل فى سبيل الإسلام، فكيف يتهمه عبد الواحد المراكشى بعد ذلك بالتغافل؟! لقد كان هذا الرجل مثلاً فى تسامحه وعفته عن الأذى وسفك الدماء، فما سمعنا فى حكمه نكبة رجل أو مصادرة وزير أو قتل إنسان بأمره ظلماً، ثم إنه كان رقيق الحاشية عفيف اللسان شديد التدين. ولقد لقى عنتاً من أولاده وما كان بينهم من تنازع، وكان هذا أمراً شائعاً فى بيوت الحكم فى تلك العصور.

ومن أكبر دلائل تسامحه ما عامل به محمد بن تومرت فى أول دعوته، وكان محمد ابن تومرت عنيفاً حاد اللسان يهاجم الأمير ويزعم أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فما زاد على بن يوسف على أن دعاه إلى مجادلة كبار فقهاء دولته، وقد زعم من أرخ لمحمد ابن تومرت أنه أفحمهم وأسكت كبيرهم مالك بن وهيب، وما كان ابن وهيب بأكبر فقهاء المملكة ولا أفحمه ابن تومرت. والذى يهمنا أن نقوله هو أن خلفاء الموحدين ما كانوا ليأذنوا لأحد فى نقدهم على النحو الذى فعله ابن تومرت معتمداً على تسامح على بن يوسف. وسنرى بعد قليل أن محمد بن تومرت كان يقتل من يجرؤ على توجيه

(١) ابن عذارى، البيان المغرب جـ٤ ص ٥٢ بإشراف د. إحسان عباس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيسر ملاحظة على أعماله، بل لقد ادعى العصمة حتى لا يجرؤ أى إنسان على توجيه أى نقد إليه.

أما إحراق كتاب الإحياء للغزالى فى أيام على يوسف فلا يسأل عنه ذلك الرجل وإنما يسأل عنه فقهاء العصر، ومعظمهم أندلسيون وكانوا فروعيين يكتفون من العلم باليسير الذى يحل مشاكل كل يوم دون رجوع إلى الأصول، وقد هاجم الغزالى هذا الطراز من الفقهاء المتكسبين بالفقه فى كتاب الإحياء؛ فسخطوا عليه وما زالوا بعلى بن يوسف حتى أمر بإحراق الكتاب.

المرابطون وشرقي الأندلس :

ولم يبذل المرابطون فى أيام على بن يوسف ومن بعده جهداً كهذا الذى بذلوه فى إنقاذ شرقى الأندلس من الضياع.

ذلك أن هذا الجانب من الأندلس كان ضعيف البناء من الناحية العسكرية والسكانية فى عصر الطوائف، وكان بنو هود قد انفردوا بالثغر الأعلى ومضوا يصانعون النصارى ويحالفونهم لإنقاذ أنفسهم على حساب إخوانهم المسلمين.

وبعد سقوط طليطلة أصبح الطريق لمعونة الشرق الأندلسى عسيراً محفوفاً بالمخاطر، خصوصاً وقد انقسم ذلك الشرق إلى سرقسطة والثغر الأعلى فى الشمال ثم دانية ثم مرسية، وكان كل منها قد تحول إلى وحدة سياسية مستقلة بنفسها. وعقب سقوط طليطلة أصبحت بلنسية تحت رحمة ملك قشتالة ألفونسو السادس ورجاله؛ لأن المأمون بن ذى النون كان قد ضم بلنسية إلى طليطلة قبل سقوطها، فلما سقطت هذه انفتح الطريق لسقوط بلنسية، ومن هنا فقد اجتهد ألفونسو السادس فى السيطرة على بلنسية بواسطة قادة كبار من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرسانه مثل البرهانيث Alvar Hanez وجارثيا أوردونييث Garcia Ordonez ثم انفرد بها السيد القمبيطور، وهو محارب مستبد غاشم كان يجمع حوله رجالاً من أهل الحرابة واللصوص والذعار، وكان له تاريخ طويل مع ملك قشالة ليس هذا موضع تفصيله، إنما موضعه تاريخ الأندلس، وقد حاصر هذا الرجل بلنسية حصاراً بشعاً شهوراً طويلة حتى سقطت فى يده فنصب نفسه أميراً عليها، وأحرق قاضيها أبا جعفر أحمد بن جحاف ونفراً آخر من سراتها، وكان ذلك فى يونيو ١٠٩٤م.

هنا نجد المرابطين يوجهون قواهم لإنقاذ هذا الجانب من الأندلس الإسلامى الذى أحاطت به الأخطار حتى كاد يخرج كله عن دار الإسلام.

فما زال المرابطون حتى استعادوا بلنسية للإسلام فى ١٥ رجب ٤٩٥/ يونيو ١١٠٢، وقد أتانا محمد بن خلف بن علقمة فى كتابه المسمى «البيان الواضح عن الملم الفادح» بتفصيل ما فعله السيد القمبيطور بأهل بلنسية من البشاعات بعد دخوله إياها وسيطرته عليها فى يونيو ١٠٩٤م.

ومع ذلك فهذا الرجل ـ السيد القمبيطور ـ يوصف بأنه رمز الفروسية الإسبانية فى ذلك العصر، فما بالك بما هو دونه.

وكان ألفونسو الأول المحارب ملك أرغون الذى تسميه مراجعنا بابن رذمير ١١٠٤م ـ ١١٣٤م Alfonso I El Batallador قد حاصر سرقسطة وكاد يستولى عليها فسارع المرابطون إليها ودخلوها، وبهذا أطالوا عمر الإسلام فى هذا الثغر القصى حتى سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م عندما جمع ألفونسو المحارب قواه كلها ونازل البلد واستولى عليها منتهزاً فرصة انشغال المرابطين فى حروب أخرى فى وسط الأندلس وغربه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتشجع ألفونسو المحارب بذلك النصر فمضى يغاور بلاد المسلمين من أحواز طرطوشة وما يليها شمالاً، وكان هذا الرجل عندما استولى على سرقسطة، قد استغلب أيضاً تطيلة Tudela وقلعة أيوب وأحوازها وشرهت نفسه للاستيلاء على الشرق الأندلسى كله واستعان فى ذلك بصاحب برشلونة وهو الكونت ريموند بن بيرنجير وهو رامون بيرنجير الرابع ١١٤٨م - ١١٤٩م Roman Berenguer IV الملقب بالكبير، وما كان كبيراً فى شىء، ولكن أهل البلاد المصاقبة للثغر الأعلى من الجنوب هابوه بعد سقوط سرقسطة فى يد ألفونسو المحارب ودفعوا له الجزية.

وشرهت نفس ألفونسو المحارب إلى الاستيلاء على لاردة وأفراغة وحصون أخرى، كانت قد بقيت للمسلمين هناك، فتنبه على بن يوسف للخطر، وأخذ يعد العدة للعودة إلى شرقى الأندلس، وأشار عليه قواده بأن يدفعوا لريموند بن بيرنجير مبلغا من المال ليقف على الحياد ريثما يفرغون من أمر ألفونس المحارب فوافق على ذلك، وسار ألفونسو المحارب فحاصر أفراغة Fraga قريبا من لاردة وهو لا يشك فى سهولة وقوعها فى يده، فنهض له صاحب بلنسية القائد يدر بن ورقاء وكنيته أبو عبد الله، وكان من أنجب قواد المرابطين، واستعان فى منازلة ألفونسو المحارب بأبى زكريا يحيى بن على بن غانية الصحراوى صاحب مرسية، ومات يدر بن ورقاء فتولى القيادة يحيى ابن غانية بعد أن جمع له على بن يوسف ولاية مرسية وبلنسية معا، والتقت قوات المسلمين مع قوات ألفونسو المحارب عند أسوار أفراغة فى ٢٣رمضان ٥٢٨هـ/ ١٧يونيو ١١٣٤م، وقد اجتهد يحيى ابن غانية لهذه الوقعة حتى أعتق بعض إمائه وعبيده، وكتب وصيته قبل أن يخوضها، وقد أنزل هذا القائد المرابطى بألفونسو المحارب هزيمة كبرى قتل فيها الألوف من رجاله ونهب معسكره، ففر إلى سرقسطة ولم يقم بها إلا قليلاً، ثم خرج إلى وشقة Huesca وهناك أدركته منيته حزيناً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كاسف البال فى ٧ سبتمبر ١١٣٤م أى بعد هزيمة أفراغة بشهرين، وهذا ثانى العتاة من ملوك إسبانيا النصرانية الذين يقضى عليهم المرابطون، فهذا الرجل ألفونسو الأول المحارب بلغت به الجرأة على المسلمين والاستهانة بأمرهم أن اخترق بلادهم من شمال إلى جنوب فى أوائل العصر المرابطى إمعاناً منه فى إظهار القوة والغلبة؛ فما زال به المرابطون حتى قضوا عليه.

وقد ذاع صيت أبى زكريا بن على ابن غانية الصحراوى بعد هذا النصر، وأصبح من فرسان المرابطين المشهورين، وقد نشأ يحيى هذا فى كنف عامل قرطبة القائد المشهور أبى عبد الله محمد بن الحاج، ثم ولاه استجة بعد أن تزوج أمه الملقبة بالغانية، ثم أسند إليه يدر ابن ورقاء عمل مرسية سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، ثم ظهر أمره بعد ثلاثة أعوام فى واقعة أفراغة، ثم نجده بعد ذلك يشترك مع قادة المرابطين فى الدفاع عن الأشبونة. ثم ولاه تاشفين بن على بن يوسف أمر قرطبة سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، فحسن بلاؤه فيها وهدأت أحوال الأندلس بفضله.

وفى ذلك الحين كانت كفة المرابطين قد بدأت تشيل فى المغرب فى صراعهم مع الموحدين الذين انتهزوا فرصة اشتغال المرابطين بالدفاع عن الإسلام فى الأندلس وكسبوا انتصارات متوالية عليهم.

وما كاد خبر هزائم المرابطين يصل إلى الأندلس حتى قام عليهم بعض زعماء الأندلس، ثار عليهم ابن قسى وهو أبو القاسم أحمد بن الحسين فى غربى الأندلس والقاضى ابن حمدين وهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمدين فى قرطبة، فسار يحيى بن غانية لحرب ابن قسى فى ماردة ولم يكد يستقر فى لبلة حتى بلغته ثورة ابن حمدين فى قرطبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فسار إلى إشبيلية حيث طرده أهلها، فسارع إلى قرطبة وتغلب على أحمد بن حمدين وطرده من قرطبة فى شعبان ٥٤٠هـ/ يناير ١١٤٦م، وقد هابه ملك قشتالة فلم يهاجم قرطبة، وتنقل أبو زكريا يحيى ابن غانية بين معاقل أندلسية شتى حتى انتهى إلى ولاية غرناطة، وكانت آخر ما بقى للمرابطين فى جنوبى غربى الأندلس، وظل فيها شهرين حتى توفى عن حياة مجيدة حافلة بالجهاد فى شعبان ٥٤٣هـ/ ديسمبر ١١٤٨م.

وكان ليحيى بن على ابن غانية هذا أخ هو محمد بن على ابن غانية الذى ولاه على ابن يوسف على الجزائر الشرقية، وسيكون لأبنائه من بعده صراع طويل مع الموحدين.

ولكى نتبين ما بذله المرابطون من جهد فى حماية الأندلس، نذكر الفقرة التالية من البيان المغرب عن حوادث سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م؛

«وفى هذه السنة خرج الأمير مزدلى من حضرة مراكش إلى الأندلس، وولاه على بن يوسف على مدينة قرطبة وغرناطة، فأجاز البحر إلى مدينة إشبيلية فاستمد الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى، فأمده بعسكر ضخم من المرابطين والحشم وغيرهم، وانضم إليهم عسكر قرطبة وغرناطة ولمة من العدوة ولفيف من المطوعة خيلاً ورجلاً، فعظم الجيش، وأمّ به الأمير مزدلى أرض طليطلة فدوخها واكتسح به أوديتها وأبلغ مكايدتها وصدر إلى قرطبة ظافراً ظاهراً على حدوده[1]».

وفى سبيل الدفاع عن الأندلس استشهد خيرة رجال المرابطين من أمثال أبى عبد الله ابن تاشفين المعروف بابن عائشة الذى قضى زهرة عمره محارباً عن الإسلام فى شرقى الأندلس، فقد اشترك فى معركة أقليش التى ذكرناها سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧هـ وفى سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م نجده يسرع بجيشه لنجدة صاحبه القائد محمد بن الحاج عامل

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ٥٧/٤، ٥٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سرقسطة عندما ألح عليها ألفونسو المحارب ملك أرغون بالحملات ويضطره إلى الانسحاب، ثم يشترك مع ابن الحاج فى غزو برشلونة، وتدور بين المسلمين وكونت برشلونة رامون بيرنجير الثالث معركة تسمى بمعركة البورت، وهى فى النصوص الإسبانية Congust del Martorell وفيها يصاب محمد ابن عائشة فى بصره، ثم لا يلبث أن يصيبه العمى، ويحل محله أخوه إبراهيم بن يوسف، وهو كذلك أخو على بن يوسف، فولاه مرسية، وظل إبراهيم يجاهد فى الأندلس حتى آخر أيامه.

ومن أشهر قواد المسلمين الذين أبلوا البلاء الحسن فى الأندلس أبو عبد الله محمد ابن فاطمة، وهو الذى استعاد بلنسية للإسلام بعد موت السيد القمبيطور، فقد سار إليها مدداً للقائد مزدلى بن سلنكان سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م وفى سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م نجده مشتركاً مع ابن الحاج فى غزو طليطلة وطلبيرة ولا يزال يجاهد حتى يتوفى فى رمضان ٥١١هـ/ ١١١٧م.

وفى سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م نجد نفراً من كبار قواد المرابطين فى الأندلس يستشهدون فى معركة واحدة فى الأندلس، وهم محمد بن مزدلى ومحمد بن الحاج وأبو إسحاق إبراهيم ابن غانية وأبو بكر بن واسنو.

قال ابن عذارى: ومات من الأمراء (فى هذه المعركة) نحو الثمانين من وجوه المرابطين وجملة كبيرة من الحشم وأهل الأندلس، وذلك فى يوم الخميس مستهل صفر من السنة المذكورة، فكان مصاباً عظيما وخطباً جسيماً، واتصل الخبر بأمير المسلمين على، فولى على قرطبة الأمير أبا بكر يحيى بن تاشفين وهو ابن عمه شقيق أبيه لأمه، فنفذ إليها وقدم عليها.

ولولا ضيق المقام لأتينا ببقية أحداث سنة ٥٠٩هـ هذه كما يرويها ابن عذارى، وهى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حافلة بوقائع جهاد المرابطين وما تحملوه من تضحيات ذياداً عن دين الله وأرض المسلمين(١).

تلك أمثلة قليلة من جهاد المرابطين في الأندلس وما أصاب رجالهم وخيرة مقاتليهم فى ميادين الدفاع عن جبهة الإسلام. ومهما نقرأ فى حوليات الإسلام فإننا لا نكاد نجد دولة من دوله بذلت فى سبيله ما بذل المرابطون حقا لقد كان توفيقهم فى جملته قليلا نسبياً، فقد دفعوا كثيراً جداً ليحصلوا على القليل، ولكن ذلك يرجع إلى أسباب كثيرة أهمها أن سلاح الحرب تطور فى بلاد النصرانية تطوراً بعيداً، فظهرت أنواع جديدة شديدة الفتك من السيوف والقسى والرماح، وتطورت صناعة الدروع حتى أصبح المقاتل النصرانى يدخل المعركة وكأنه حصن صغير هو وفرسه، فى حين ظل المقاتلون المسلمون يحاربون بالسيوف والدرق، وكان معظمهم مع ذلك رجالة فى حين كان معظم النصارى من الفرسان، ثم إن الأندلسيين تقاعسوا عن عون المرابطين وتخوفوهم، ثم انقلبوا عليهم.

وفي أثناء ذلك الصراع المرير الذى خاضه المرابطون ينهض محمد بن تومرت ليتهمهم بالكفر والمروق عن الدين والتجسيم والفساد، ويدعو الناس لجهادهم كأنهم الكفار. وما كان ذلك إلا عصبية مصمودية حملت هذا الرجل على السعى لانتزاع السلطان من صنهاجة الصحراء.

وقد آن الأوان لأن ننتقل إلى دراسة الموحدين فقد تحدثنا عن فضل المرابطين بما فيه الكفاية، وحكينا معظم تاريخهم وبقيته تأتى فى تاريخ الصراع بينهم وبين الموحدين.

كان من سوء حظ الإسلام أن ظهر ابن تومرت والمرابطون فى عنفوان جهادهم فى سبيل الإسلام فقضى عليهم بقوات قبائل مصمودة، وأضاع على الإسلام فرصة الإفادة من

(١) ابن عذارى البيان المغرب، ٤/ ٦١-٦٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جماعة مجاهدة باسلة بذلت الكثير وكانت تستطيع أن تبذل الأكثر، ثم إنه أضاع فى حرب المرابطين قوى موحدية كان من الممكن أن تسد جانبا من ثغر الإسلام تهدده الخطر فى الأندلس، ولكن هكذا أرادت تصاريف التاريخ.

وتختم هذا الكلام عن دور المرابطين فى تاريخ المغرب فنقول: إنهم أول جماعة مغربية صميمة تنشئ دولة كبرى لها هذا الدور الكبير فى تاريخ المغرب.

حقاً لقد سبقهم إلى إنشاء الدول المغربية آل زيرى بن مناد بفرعيهم فى إفريقية والمغرب الأوسط، ولكن البون شاسع بين بنى زيرى، وهم صنهاجة الجيل الأول بحسب تصنيف ابن خلدون والمرابطين وهم صنهاجة الجيل الثانى. فإن هؤلاء الأخيرين كانوا أول من أقام فى المغرب كله الدول العظيمة التى تضاهى عظميات دول الإسلام قوة وقدراً واتساع سلطان، وقد أقاموا دولتهم على أسس إسلامية صرفة فأحسنوا الأساس والبناء، وكانت دولتهم فى مجموعها ذات نظام حسن وأمن مستقر فى بلادهم كلها، وعلى الرغم مما تحملوه من مواجهة الصليبية الإسبانية وكسر شوكتها، وما كلفهم ذلك من دماء وجهد كما رأينا، وعلى الرغم مما واجههم به الأندلسيون من نكران وخيانة، فقد ظل المرابطون فى الميدان ظاهرين على عدوهم، قائمين بأمر رعاياهم أحسن قيام حتى وفاة ثالث أمرائهم وهو تاشفين بن يوسف سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وهو يحارب الموحدين الذين حصروه فى تلمسان.

وقد كانت نهاية هذا الأمر الباسل أسيفة، فقد تردى به حصانه فى ظلام الليل، والموحدون يحاصرونه فى تلمسان، فسقط من حالق وأدركته منيته، وكان ذلك نذيراً بنهاية الدولة. وكان ذلك أيضا رمزاً على سوء حظ هذه الأسرة المجيدة التى أعطت الكثير جدا وأخذ رجالها القليل جدا، ولكن وزنهم فى التاريخ الإسلامى والعالمى عظيم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دولة الموحدين

الموحدون

تـوقيـت :

١ – محمد بن تومرت (المهدى) ٥١٥– ٥٢٤هـ/ ١١٢١– ١١٣٠م.

٢ – عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين، ٥٢٤– ٥٥٨هـ / ١١٣٠– ١١٦٣م.

٣ – أبو يعقوب يوسف، ٥٥٨– ٥٨٠هـ/ ١١٦٣– ١١٨٤م.

٤ – أبو يوسف يعقوب المنصور، ٥٨٠– ٥٩٥هـ/ ١١٨٤– ١١٩٨م.

٥ – أبو عبد الله محمد الناصر، ٥٩٥– ٦١٠هـ/ ١١٩٨– ١٢١٣م.

٦ – يوسف المستنصر، ٦١١– ٦٢٩هـ/ ١٢١٤– ١٢٢٣م.

٧ – عبد الواحد المخلوع، ٦٢٠– ٦٢١هـ/ ١٢٢٣– ١٢٢٤م.

٨ – أبو محمد عبد الله العادل بن المنصور، ٦٢١– ٦٢٤هـ/ ١٢٢٣– ١٢٢٧م.

٩ – أبو العلا إدريس المأمون بن المنصور، ٦٢٦– ذو الحجة ٦٢٩هـ/ ١٢٢٨– ١٢٣٢م.

١٠– أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن المأمون، ٦٣٠– ٦٤٠هـ/ ١٢٣٢– ١٢٤٢م.

١١– أبو الحسن على السعيد المتعضد بالله بن المأمون، ٦٤٠– ٦٤٦هـ/ ١٢٤٢– ١٢٤٨م.

١٢- أبو حفص عمر المرتضى بن إسحاق بن المنصور، ٦٤٦- ٦٦٥هـ/ ١٢٤٨- ١٢٦٦م.

١٣- أبو العلا إدريس الوائق أبو دبوس، ٦٦٥- ٦٦٨هـ/ ١٢٦٦- ١٢٦٩م.

١٤- دخول بنى مرين مراكش ونهاية الموحدين، المحرم ٦٦٨هـ/ يوليو ١٢٦٩م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دولـــة المـوحـديـن

كان نجاح عبد الله بن ياسين فى إثارة حركة دينية إصلاحية واسعة النطاق فى المغرب، ثم تمهيده الطريق لقيام دولة صنهاجية استطاعت أن تخلص الصنهاجيين من استبداد الزناتيين، حافزاً لفقيه مغربى آخر من إحدى قبائل مصمودة على محاولة القيام بدعوة مماثلة لصالح القبائل المصمودية، وهى الكتلة الكبرى من البرانس، ومواطنها فى المغرب الأقصى كله.

هذا الفقيه هو محمد بن تومرت الذى ولد سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م على وجه التقريب، فى قبيلة مصمودية صغيرة تسمى أرغان أو هرغان التى عربت على هرغة، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن اسمه لم يكن محمداً بل اتخذه هو فى ما بعد، ولا نجد ما يدعو إلى هذا الفرض، فإن اسم محمد اسم شائع بين المسلمين جميعاً، أما لقبه – وهو تومرت– فإن المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال يقول إنه اسم جدته وإنه نسب إليها فقيل محمد بن تومرت. أما اسم وجليد الذى يذكر على أنه اسم جده فهو لقب بربرى شائع هو أجليد ومعناه الشيخ أو الزعيم. فهو على هذا ليس اسماً. ويلقب ابن تومرت بأمغار ومعناه العالم أو الفقيه، وفى الكتاب الذى كتبه خادمه أبو بكر الصنهاجى الملقب بالبيدق نجد ابن تومرت يوصف بأنه أمغار آن سوس أى فقيه السوس.

وقد لقب ابن تومرت أيضاً بلقب أسافو ومعناه السراج. ويقال إن هذا اللقب أطلق عليه فى شبابه بسبب إيقاده السرج فى المساجد للقراءة على نورها فى الليل طلبا للعلم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

درس ابن تومرت أول الأمر فى بلده ثم فى مراكش وحوالى ٥٠١هـ/ ١١٠٧-١١٠٨م يشرع فى رحلة دراسة طويلة إلى المشرق، وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك كبير، لأن ابن تومرت يقول إنه وصل فيها إلى بغداد ودرس على أبى حامد الغزالى، بل يروى أحاديث دارت بينه وبين حجة الإسلام، وذلك مستبعد لأن الغزالى رحل سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م إلى طوس ولم يعد إلى بغداد أو دمشق ثانية ثم توفى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م، فإذا كان ابن تومرت قد غادر بلده سنة ٥٠٦هـ فهو قطعاً لم يلق الغزالى، بل نشك كثيراً فى أن ابن تومرت وصل إلى بغداد أو الحجاز، وغاية ما يمكن قوله بصيغة التأكيد أنه وصل إلى الإسكندرية وربما إلى القاهرة وأطال المكوث فى مصر والقيروان، حيث ألمَّ بجانب كبير من العلم.

ولا شك فى أن محمد بن تومرت كان رجلاً غير عادى الذكاء، ولكن ذكاءه كله كان منصرفاً إلى السياسة وطلب السلطان، وعندما ندرس حياته نرى كيف أنه وضع كل ما حصله من العلم فى خدمة طموحه السياسى، وهذا الطموح السياسى أيضاً مشكلة من المشاكل، فهذا الرجل الذى تصدى لإنشاء كيان سياسى فريد فى نوعه هو حركة الموحدين ونظمه على طريقة مبتكرة تدل على ذهن منهجى مرتب، وتمكن من أن يسقط دولة كبرى ويقيم دولة هى أكبر منها مكانها، هذا الرجل كان متقشفاً زاهداً لا يتمسك بأى مظهر من مظاهر السلطان، فقد كان حصوراً أى لا يقرب النساء، وهو لم يتزوج ولا أنجب، ولم يجعل نفسه خليفة أو سلطاناً، بل مهد الطريق لعبد المؤمن بن على لكى يبلغ الرياسة السياسية والدينية ويتمتع هو وبنوه بالملك وما يتصل به، فى حين مات ابن تومرت فقيراً رغم الجاه الروحى الذى تمتع به. وقد حرص عبد المؤمن بن على على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القضاء على من تطلع إلى جاه أو سلطان من أفراد أسرة ابن تومرت، ولم يكن هذا الأخير يجهل أن ذلك لا بد أن يحدث بأهله ولكنه لم يفعل شيئاً لتلافيه.

وإذاً فشخصية محمد بن تومرت شخصية غريبة معقدة، وكلما قرأنا سيرة حياته- كما كتبها خادمه أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق- تكشفت لنا أمور أخرى تزيد شخصية هذا الرجل تعقيداً وغموضاً.

وهذا التعقيد يكتنف أيضاً كتاباته التي كانت أساساً للتفكير الديني في الحركة الموحدية. فإذا قرأنا كتابه المسمى «أعز ما يطلب» وهو أحسن ما كتب، وجدنا خليطاً من آراء أهل السنة وأفكار الشيعة ما بين معتدلين ومتطرفين، وفيه كذلك أفكار صوفية متطرفة لا يرضى عنها الإسلام السمح الواضح. وكلامه بعد ذلك فيه غموض وتكلف لأساليب الكهان وأهل السحر ما زال إلى الآن يحيرنا في أمر عقيدة ابن تومرت.

بدايات محمد بن تومرت:

تبدأ معلوماتنا الدقيقة بعض الشيء عن حياة محمد بن تومرت أثناء عودته من المشرق، ويرويها لنا خادمه أبو بكر الصنهاجي وابن القطان في كتابه «نظم الجمان» وعبد الواحد المراكشي في كتابه المسمى «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» وهذه المعلومات في مجموعها حكايات تدور كلها حول أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تصدى ابن تومرت لعملها، وهي حكايات لا يمكن قبول معظمها، ولكنها تعطينا الصورة التي دخل بها هذا الرجل التاريخ، وهي صورة آمر بالمعروف ناه المنكر طالب للظهور والجاه بمعارضة السلطة الحاكمة وإثارة الشغب، وهي بداية تتنفق تماماً مع خطته التي رسمها لنفسه، وهي اجتذاب الأنظار نحو نفسه، والظهور بمظهر مصلح ديني وثائر على ما يقع في المجتمع من